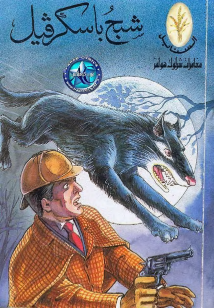

شبح باسكرفيل
مغامرات شرلوك هولمز
السنابل
ARAB COMICS
www.arabcomics.net





مغامرات شرلوك هولمز

شبح باسكرڤيل



تأليف : سير آرثر كونان دويل

نقلها إلى العربية : محمد حلمي محمود

رسوم : عبد الشافي سيد

مكتبة لبنان ناشرون — الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان

١٠٦ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي ، الجيزة - مصر

مكتبة لبنان ناشرون ش.م.ل

ص.ب : ٩٢٣٢ - ١١
بيروت - لبنان
وكلاء وموزعون في جميع أنحاء العالم

الطبعة الأولى ١٩٩٧

رقم الإيداع ٧٥٠٩ / ١٩٩٣

الترقيم الدولي ISBN ٩٧٧ - ١٦ - ٠٢٣٧ - ٧

طبع في دار نوبار للطباعة ، القاهرة

الفصل الأول

اتَّخَذَ السَّيِّدُ شِرْلوك هولمز ، الّذي اعْتادَ الاسْتيقاظَ مِنْ نَوْمِهِ مُتأخِّراً إلا في المُناسَباتِ ، مَجْلِسَهُ إلى مائِدَةِ الطَّعامِ . أمّا أنا فَقَدْ وَقَفْتُ قُدّامَهُ حِيالَ المِدْفأةِ ، حَيْثُ الْتَقَطْتُ العَصا الّتي كانَ زائِرُنا قَدْ نَسِيَها في اللَّيْلَةِ السّابِقَةِ . عَصاً جَميلَةً غَليظَةً قَدْ لُفَّ حَوْلَها شَريطٌ عَريضٌ مِنَ الفِضَّةِ ، وَقَدْ كُتِبَ عَلَيْها : « إهْداءٌ إلى جيمس مورتيمر ، عُضْوِ الأكاديمِيَّةِ المَلَكِيَّةِ لِلطَّبيعِيّاتِ ، مِنْ أصْدِقائِهِ في مُسْتَشْفى تشيرنغ كروس » بِتاريخِ ١٨٨٤ . وَكانَتْ مِنْ ذَلِكَ الصِّنْفِ مِنَ العِصِيِّ الّتي يَألَفُ حَمْلَها طَبيبٌ مِثْلُهُ ، يَعْتَزُّ بِكُلِّ قَديمٍ .

« حَسَنٌ ، يا واطْسُن . ما رَأْيُكَ فيها ؟ ها هُوَ ذا صاحِبُها الّذي يَدُقُّ البابَ الآنَ . وَإنَّها كَلَحْظَةِ القَدَرِ ، عِنْدَما يَطْرُقُ سَمْعَكَ عَلى الدَّرَجِ خُطْوَةٌ داخِلَةٌ في حَياتِكَ إنْ خَيْراً أوْ شَرّاً . تُرى ماذا يَنْشُدُ الدُّكْتور جيمس مورتيمر عِنْدَ شِرْلوك هولمز ؟ تَفَضَّلْ بِالدُّخولِ ».

أدْهَشَتْني هَيْئَةُ زائِرِنا ؛ فَقَدْ كانَ رَجُلاً مُفْرِطَ الطّولِ ، ذا أنْفٍ مُسْتَطيلٍ كَأنَّهُ مِنْقارٌ ، وَقَدْ بَرَزَ بَيْنَ عَيْنَيْنِ نَفّاذَتَيْنِ رَمادِيَّتَيِ اللَّوْنِ تَألَّقَتا مِنْ وَراءِ نَظّارَتِهِ ؛ وَهُوَ بِالرَّغْمِ مِنْ كَوْنِهِ لا يَزالُ شابّاً ، إلا أنَّهُ كانَ مُحْدَوْدِبَ الظَّهْرِ . وَطَفِقَ يَمْشي وَيَداهُ تَسْبِقانِهِ إلى أمامٍ . وَهُوَ عَلى ضَعْفِ نَظَرِهِ وَدودٌ . وَما إنْ حَلَّ بِالغُرْفَةِ حَتّى لَمَحَتْ عَيْناهُ العَصا وَهِيَ في يَدِ هولمز .

قالَ الرَّجُلُ : « وا فَرْحَتاهُ ! لَمْ أكُنْ على ثِقَةٍ بِأنَّني نَسيتُها هُنا ؛ فَإنّي لا أحِبُّ أنْ أفْقِدَ تِلْكَ العَصا .»

قالَ هولمز : « هَدِيَّةٌ مُهْداةٌ عَلى حَدِّ ظَنّي ؟»

« أجَلْ ، يا سَيِّدي .»

« مِنْ مُسْتَشْفى تشيرنغ كروس ؟»

« مِنْ واحِدٍ أوِ اثْنَيْنِ مِنْ أصْدِقائي بِمُناسَبَةِ زِفافي . إنَّكَ لَتُثيرُ انْتِباهي ، يا سَيِّدُ هولمز . لم أكُنْ أتَوَقَّعُ أنْ أرى مِثْلَ ذَلِكَ الرَّأسِ الصَّغيرِ ، وَلا ذَلِكَ النُّمُوَّ العَظيمِ في العِظامِ . أ يُضيرُكَ أنْ أتَحَسَّسَهُ ؟ إنّي لأعْتَرِفُ أنّي مَشْغوفٌ بِشَكْلِ رَأسِكَ !»

« يَغْلِبُ عَلى ظَنّي ، يا سَيِّدي ، أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فَحْصُ رَأْسي وَحْدَهُ هُوَ ما دَعاكَ إلى تَشْرِيفي بِزِيارَتِكَ هُنا اللَّيْلَةَ الماضِيَةَ ، وَاليَوْمَ مَرَّةً أُخْرى ».

« لا ، يا سَيِّدي . وَإِنّي ، وَلَوْ أَنّي سَعيدٌ لأَنْ تُتاحَ لِيَ الفُرْصَةُ لِذَلِكَ ، قَدْ جِئْتُكَ ، يا سَيِّدُ هولمز ، لأَنَّني أَعْرِفُ أَنَّني لَسْتُ رَجُلاً عَمَلِيًا ، وَلأَنَّني وَقَعْتُ فَجْأَةً في أَعْتى المُعْضِلاتِ ».

الفَصْلُ الثّاني

قالَ الدُّكْتور جيمس مورتيمر : « في جَيْبي بَعْضُ الأَوْراقِ أَوْدَعَها عِنْدي سِير تشارلز باسكرڤيل ، الَّذي أَثارَ مَوْتُهُ المُفاجِئُ مُنْذُ ثَلاثَةِ أَشْهُرٍ كَثيراً مِنَ اللَّغَطِ في ديڤونشاير . وَكانَ قَدْ تَلَقّى تِلْكَ الأَوْراقَ بِاهْتِمامٍ بالِغٍ ، وَكانَ مُتَوَقِّعاً المَوْتَ الَّذي أَتاهُ في النِّهايَةِ ».

وَمَدَّ هولمز يَدَهُ لِيَتَلَقّى الأَوْراقَ ؛ أَمّا أَنا فَتَطَلَّعْتُ مِنْ فَوْقِ كَتِفِهِ إلى الوَرَقَةِ الصَّفْراءِ وَالكِتابَةِ الباهِتَةِ عَلَيْها ، وَكانَ مَكْتوباً أَعْلاها: « قاعَةُ باسكرڤيل » ، وَتَحْتَ هَذا رَقْمٌ كَبيرٌ مُشَوَّشٌ : ١٧٤٢ .

« لَعَلَّ بِها حِكايَةً ذاتَ أَهَمِّيَّةٍ خاصَّةٍ ! »

« أَجَلْ ، إِنَّها وَصْفٌ لِحادِثٍ مَعْروفٍ جَيِّداً لأُسْرَةِ باسكرڤيل. أَسْتَميحُكَ الإِذْنَ في أَنْ أَقْرَأَها لَكَ ».

وَ وَجَّهَ الدُّكْتور مورتيمر الأوْراقَ تُجاهَ الضَّوْءِ ، ثُمَّ قَرَأَ القِصَّةَ القَديمَةَ الغَريبَةَ التّالِيَةَ :

« راجَتْ شائعاتٌ كَثيرَةٌ عَنْ أَصْلِ كَلْبِ عائِلَةِ باسكرڤيل ، وَلأنَّني واحِدٌ مِنْ أَحْفادِ سِير هوغو باسكرڤيل ؛ فَالَّذي رَوى لي تِلْكَ القِصَّةَ هُوَ والِدي الَّذي تَلَقّاها عَنْ أبيهِ ؛ وَلِذلِكَ أكْتُبُ هذا الوَصْفَ الآنَ ، وَأنا موقِنٌ بِما لا يَتَطَرَّقُ إلَيْهِ شَكٌّ ، مِنْ أنَّ وَقائِعَها قَدْ جَرَتْ تَماماً كَما أَرْويها الآنَ . وَاعْلَمْ ، وَتَعَلَّمْ ، مِنْ هٰذِهِ القِصَّةِ ألا تَخْشى عَواقِبَ الماضي ، بَلْ أَنْ تَكونَ حَريصاً في المُسْتَقْبَلِ ، كَيْلا تُعانِيَ مِثْلَ مُعاناةِ عائِلَتِنا في الماضي .

« اِعْلَمْ – إذاً – أنَّ قَصْرَ باسكرڤيل كانَ يَمْتَلِكُهُ هوغو باسكرڤيل ، وَكانَ رَجُلاً حُوشِيًا شِرّيراً . وَقَدْ حَدَثَ أنْ وَقَعَ في حُبِّ ابْنَةِ رَجُلٍ فَقيرٍ يَمْتَلِكُ قِطْعَةَ أَرْضٍ مُجاوِرَةً لِلْقَصْرِ ، بَيْدَ أنَّ الفَتاةَ الصَّغيرَةَ ، كانَتْ دائِماً تَتَنَحّى عَنْ طَريقِهِ ؛ لأنَّها كانَتْ تَخافُ مِنْ مُجَرَّدِ ذِكْرِ اسْمِهِ .

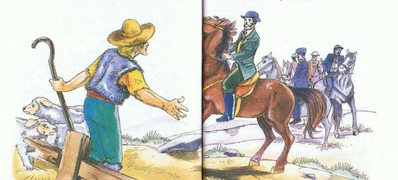
« وَحَدَثَ ذاتَ لَيْلَةٍ أنْ كانَ أبوها وَإخْوَتُها خارِجَ الدّارِ ، فَتَسَلَّلَ هَذا الرَّجُلُ هوغو وَمَعَهُ خَمْسَةٌ أوْ سِتَّةٌ مِنْ رِفاقِهِ الأشْرارِ ، إلى الكوخِ الَّذي تَعيشُ فيهِ الفَتاةُ ، وَخَطَفوها . وَلَمّا بَلَغوا بِها

القَصْرَ ، حَبَسوها في غُرْفَةٍ بِالطّابَقِ العُلْوِيِّ ، في حينَ جَلَسوا في الطّابَقِ السُّفْلِيِّ ، وَراحوا يَحْتَسونَ الخَمْرَ عَلى مَألوفِ عادَتِهِمْ . أمّا الفَتاةُ التَّعِسَةُ المُحْتَجَزَةُ بِالطّابَقِ الأعْلى ، فَكادَ الفَزَعُ يَذْهَبُ بِعَقْلِها مِمّا سَمِعَتْ مِنَ الغِناءِ وَالصُّراخِ وَألْفاظِ السِّبابِ وَالفُحْشِ المُنْبَعِثَةِ مِنْ أسْفَلُ . وَفي حالَتِها تِلْكَ أتَتْ بِما يُعْجِزُ أمْهَرَ الرِّجالِ ؛ فَقَدْ تَعَلَّقَتْ بِشَجَرَةِ اللَّبْلابِ الَّتي كانَتْ تُغَطّي الجِدارَ ، وَشَرَعَتْ تَهْبِطُ حَتّى وَصَلَتْ إلى الأرْضِ ، وَراحَتْ تَعْدو مُسْرِعَةً مُسْتَقْبِلَةً مَنْزِلَها الَّذي كانَ عَلى قِيدِ خَمْسِ كيلومِتْراتٍ مِنَ المُسْتَنْقَعِ .

« وَما هِيَ إلا هُنَيْهَةٌ حَتّى اكْتَشَفَ هوغو أنَّ القَفَصَ كانَ خاوِياً، وَأنَّ الطّائِرَ هَرَبَ ، الأمْرُ الَّذي أثارَ جُنونَهُ ؛ فَراحَ يَقْفِزُ دَرَجاتِ السُّلَّمِ حَتّى بَلَغَ غُرْفَةَ الطَّعامِ ، فَوَثَبَ فَوْقَ المائِدَةِ الكَبيرَةِ مُبَعْثِراً الفَناجينَ وَالأطْباقَ ، وَراحَ يَصْرُخُ في أعْوانِهِ أنَّهُ سَوْفَ يُسَلِّمُ جَسَدَهُ وَروحَهُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ لِكُلِّ قُوى الشَّرِّ – إنْ هُوَ اسْتَطاعَ القَبْضَ عَلى الفَتاةِ . وَانْطَلَقَ مِنَ الدّارِ يُزَمْجِرُ وَيَصْرُخُ في خَدَمِهِ ، وَأمَرَهُمْ أنْ يُسْرِجوا فَرَسَهُ وَيُطْلِقوا كِلابَهُ ، ثُمَّ جَعَلَ الكِلابَ تَشُمُّ أحَدَ مَناديلِ الفَتاةِ كَيْ تَتَعَرَّفَ عَلى عِطْرِها ، ثُمَّ عَدا بِفَرَسِهِ

خَلْفَ الكِلابِ بِأَقْصى سُرْعَةٍ في نورِ القَمَرِ . أمّا أولَئِكَ السُّكارى، فَقَدْ وَقَفوا لَحْظَةً أَلْسُنُهُمْ مَعْقودَةٌ ، إلا أنَّ عُقولَهُمْ أَدْرَكَتْ ما عَساهُ يَقَعُ حينَذاكَ عَلى الطَّريقِ . لَقَدْ كانَ كُلُّ شَيْءٍ في غايَةِ الاضْطِرابِ ، بَعْضُهُمْ كانَ يُنادي في طَلَبِ بُنْدُقِيَّتِهِ ، وَبَعْضٌ ثانٍ كانَ يَطْلُبُ جَوادَهُ ، وَبَعْضٌ ثالِثٌ كانَ يَنْشُدُ شَيْئًا مِنَ الخَمْرِ ، لَكِنَّهُمْ ، في النِّهايَةِ ، كانوا ثَلاثَةَ عَشَرَ رَجُلاً . وَلَمّا وَجَدوا جِيادَهُمْ انْطَلَقوا في أَثَرِ هوغو وَكِلابِهِ .

« وَلَمْ يُجاوِزوا غَيْرَ ثَلاثَةِ كيلومِتْراتٍ حَتّى مَرّوا بِراعي غَنَمٍ مِنْ أولَئِكَ الَّذينَ يَرْعَوْنَ الأَغْنامَ عَلى الرِّمالِ في المَساءِ ، وَصاحوا فيهِ إنْ كانَ رَأى سِرْبًا مِنَ الكِلابِ ، فَتَمَلَّكَ الرَّجُلَ الفَزَعُ ، وَكادَ يَنْعَقِدُ لِسانُهُ . لَكِنَّهُ ، أخيرًا ، قالَ إنَّهُ رَأى الفَتاةَ التَّعيسَةَ ، وَالكِلابَ في أَثَرِها ، ثُمَّ تَمْتَمَ قائِلاً : « أمّا هوغو باسكرڤيل فَقَدْ مَرَّ بي وَهُوَ عَلى صَهْوَةِ جَوادِهِ الأَسْوَدِ ، وَمِنْ وَرائِهِ كِلابٌ مِنْ سُلالَةِ الشَّياطين، وَقاني اللَّهُ شَرَّ عَدْوِهِمْ وَرائي ! »



« وَانْطَلَقَ الرَّكْبُ ، بَعْدَ أَنْ أَمْطَروا الرَّجُلَ لَعْنًا . وَسُرْعانَ ما اعْتَراهُمُ الفَزَعُ ؛ إِذْ تَرامى إلى أَسْماعِهِم صَهيلُ حِصانٍ يُهْرَعُ نَحْوَهُمْ ، ثُمَّ تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ حِصانُ هوغو الأَسْوَدُ ، وَقَدْ تَصَبَّبَ عَرَقًا ، وَمَرَّ بِهِمْ وَهُوَ في غايَةِ الهَيَجانِ ، وَكانَ سَرْجُهُ خالِيًا ! وَبَعْدَ ذلِكَ سارَ الرِّجالُ مُتَقارِبينَ مِنْ فَرْطِ ما أَصابَهُمْ مِنَ الهَلَعِ . وَأَخيرًا بَلَغوا حَيْثُ كانَتِ الكِلابُ . وَكانَتْ تِلْكَ الكِلابُ ، رَغْمَ شُهْرَتِها بِالجُرْأَةِ وَالشَّراسَةِ بِصِفَتِها كِلابَ صَيْدٍ ، واقِفَةً عَلى حافَةِ غَوْرٍ ، وَقَدْ بَدا عَلَيْها فَزَعٌ بالِغٌ . وَتَقَدَّمَ إلى الأَمامِ ثَلاثَةٌ مِنْ أُولئِكَ الرِّجالِ، وَلَعَلَّهُمْ كانوا أَشْجَعَهُمْ أَوْ كانوا قَدْ أَفْرَطوا في الشَّرابِ ، وَكانَ القَمَرُ مُتَجَلِّيًا في السَّماءِ .

« وَفي وَسَطِ الغَوْرِ وَجَدوا الفَتاةَ المِسْكينَةَ مَطْروحَةً ؛ لَقَدْ قَضى عَلَيْها الفَزَعُ وَالضَّعْفُ ، بَيْدَ أَنَّ أُولئِكَ العُتاةَ لَمْ يُخِفْهُمْ مَشْهَدُ جَسَدِها وَلا جُثَّةُ هوغو باسكرفيل راقِدَةً بِالقُرْبِ مِنْها ، وَإِنَّما أَرْعَبَهُمْ مَرْأى شَيْءٍ فَظيعٍ ، واقِفٍ فَوْقَ رَأْسِ هوغو وَهُوَ يَنْهَشُ رَقَبَتَهُ . ذلِكَ الشَّيْءُ كانَ حَيَوانًا أَسْوَدَ اللَّوْنِ ضَخْمَ الجُثَّةِ كَأَنَّهُ كَلْبُ صَيْدٍ ، إِلا أَنَّهُ كانَ أَكْبَرَ مِنْ أَيِّ كَلْبٍ آخَرَ وَقَعَتْ عَلَيْهِ عَيْنُ بَشَرٍ . وَكانَ الكَلْبُ قَدْ مَزَّقَ رَقَبَةَ هوغو باسكرفيل تَمامًا، وَبَعْدَها تَحَوَّلَ بِعَيْنَيْهِ المُتَوَهِّجَتَيْنِ النّارِيَّتَيْنِ وَمَخالِبِهِ الدّامِيَةِ

إِلَيْهِمْ ، فَصَرَخَ ثَلاثَتُهُمْ مِنَ الفَزَعِ ، وَامْتَطَوْا جِيادَهُمْ هَرَبًا بِأَنْفُسِهِمْ .

« تِلْكُمُ هِيَ القِصَّةُ ، يا أَبْنائي ، قِصَّةُ الكَلْبِ الَّتي جَرَّتْ وَلا تَزالُ تَجُرُّ الفَزَعَ وَالهَلَعَ دَوْمًا عَلى تِلْكَ الأُسْرَةِ . وَمُنْذُ ذلِكَ الوَقْتِ ماتَ كَثيرونَ مِنْ أَفْرادِ عائِلَتِنا ميتَةً تَعِسَةً مُفاجِئَةً عَنيفَةً يَكْتَنِفُها الغُموضُ . وَإِنّي لأَحُثُّكُمْ عَلى اليَقينِ بِاللهِ ، وَأُحَذِّرُكُمْ مِنِ اجْتِيازِ ذلِكَ المُسْتَنْقَعِ أَثْناءَ الظَّلامِ ، حينَ تَكونُ قُوى الشَّرِّ في عُنْفُوانِها .»

وَعِنْدَما فَرَغَ الدُّكْتور مورتيمر مِنْ قِراءَةِ تِلْكَ القِصَّةِ الغَريبَةِ ، أَقْبَلَ بِوَجْهِهِ عَلى السَّيِّدِ شِرْلوك هولمز ، وَقالَ :

« وَالآنَ ، يا سَيِّدُ هولمز ، إِنّي لَقارِئٌ عَلَيْكَ شَيْئًا وَقَعَ حَديثًا . ها هِيَ ذي إِحْدى الصُّحُفِ ؛ وَأَعْني بِها « الديفون كاونتي نيوز » الصّادِرَةَ في الرّابِعَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ يونيه مِنْ هذا العامِ . وَهِيَ تُعْطينا وَصْفًا موجَزًا لِمَصْرَعِ سير تشارلز باسكرفيل قَبْلَ ذلِكَ التّاريخِ بِبِضْعَةِ أَيّامٍ .»

وَمالَ صَديقي إِلى الأَمامِ ، ثُمَّ مَضى يَقولُ وَعَلى وَجْهِهِ شَغَفٌ وَلَهْفَةٌ :

« مَوْتُ سِير تشارلز باسكرفيل المُفاجِئُ نَشَرَ مَسْحَةً مِنَ الحُزْنِ عَلى النَّاحِيَةِ كُلِّها ، وَرَغْمَ أَنَّ سِير تشارلز عاشَ في قَصْرِ باسكرفيل فَتْرَةً قَصيرَةً نَوْعًا ما ، إلا أَنَّ طَبيعَتَهُ السَّمْحَةَ وَكَرَمَهُ الحاتِمِيَّ ، قَدْ أَكْسَباهُ احْتِرامَ كُلِّ مَنْ كانَ لَهُ تَعامُلٌ مَعَهُ . وَكَما هُوَ مَعْروفٌ ، فَإِنَّ سِير تشارلز قَدْ جَمَعَ ثَرْوَةً ضَخْمَةً ، عَنْ طَريقِ التِّجارَةِ في جَنوبِ إِفْريقْيا . وَلَمّا كانَ مَحْروماً مِنَ الذُّرِّيَّةِ ، فَقَدْ أَعْلَنَ عَنْ رَغْبَتِهِ في أَنْ تَنْتَفِعَ كُلُّ النّاحِيَةِ بِأَمْوالِهِ الجَمَّةِ . وَكانَتْ هَداياهُ السَّخِيَّةُ الَّتي يُقَدِّمُها في المُناسَباتِ الإِنْسانِيَّةِ ، قَدْ سُجِّلَتْ في هَذِهِ الصَّحيفَةِ .

« وَلَمْ تُوَضِّحِ الأَحْداثُ الَّتي لابَسَتْ مَوْتَ تشارلز سَبَبَ المَوْتِ التَّوْضيحَ الكافِيَ ، أَثْناءَ التَّحْقيقِ . لكِنْ وُجِدَ ما يَكْفي لِقَطْعِ دابِرِ الحِكاياتِ الَّتي تُنوقِلَتْ في ذَلِكَ - حَدَثَتِ الوَفاةُ نَتيجَةً لأَسْبابٍ طَبيعِيَّةٍ .

« لَقَدْ عاشَ سِير تشارلز عيشَةَ البَساطَةِ ، وَكانَ خادِماهُ هُما السَّيِّدَ وَالسَّيِّدَةَ باريمور . وَقَدْ أَوْرَدَتْ تَقاريرُهُما أَنَّ حالَةَ سِير تشارلز الصِّحِّيَّةَ كانَتْ سَيِّئَةً لِبِضْعِ سِنينَ خَلَتْ ، وَلَعَلَّ ذَلِكَ راجِعٌ إِلى مَرَضِ القَلْبِ الَّذي كانَ يُسَبِّبُ لَهُ دائِماً تَغَيُّراً في

اللَّوْنِ ، وَصُعوبَةً في التَّنَفُّسِ . وَقَدْ أَيَّدَ ذَلِكَ الدُّكْتور جيمس مورتيمر - طَبيبُهُ وَصَديقُهُ .

« كانَ مِنْ عادَةِ سِير تشارلز باسكرفيل السَّيْرُ كُلَّ مَساءٍ في المَمَرِّ المَعْروفِ بِمَمَرِّ أَشْجارِ السَّرْوِ عِنْدَ القَصْرِ ، وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يَأْوِيَ إِلى فِراشِهِ . وَفي الرّابِعِ مِنْ شَهْرِ يونيه أَعْلَنَ عَنْ عَزْمِهِ الذَّهابَ إِلى لَنْدَن في اليَوْمِ التّالي ، وَتِلْكَ اللَّيْلَةَ خَرَجَ لِلتَّنَزُّهِ كَعادَتِهِ وَهُوَ يُدَخِّنُ سيجارَهُ ، لكِنَّهُ ذَهَبَ وَلَمْ يَعُدْ . وَعِنْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ اكْتَشَفَ باريمور أَنَّ البابَ العُمومِيَّ لَمْ يَزَلْ مَفْتوحاً، الأَمْرُ الَّذي أَصابَهُ بِشَيْءٍ مِنَ القَلَقِ ؛ فَتَناوَلَ مِصْباحاً وَمَضى لِلْبَحْثِ عَنْ سَيِّدِهِ . وَكانَ اليَوْمُ مُمْطِراً ، وَبِذَلِكَ كانَ مِنَ المَيْسورِ تَتَبُّعُ آثارِ أَقْدامِ سِير تشارلز في المَمَرِّ . وَعِنْدَ مُنْتَصَفِ الطَّريقِ كانَ ثَمَّ بابٌ كَبيرٌ يُؤَدّي إِلى المُسْتَنْقَعِ ، وَكانَ ثَمَّ دَليلٌ عَلى أَنَّ سِير تشارلز كانَ قَدْ تَوَقَّفَ هُناكَ هُنَيْهَةً ، ثُمَّ مَضى في طَريقِهِ عَلى المَمَرِّ حَيْثُ عُثِرَ عَلى جُثَّتِهِ في نِهايَتِهِ . وَثَمَّ شَيْءٌ واحِدٌ لَمْ يَذْكُرْهُ باريمور في التَّحْقيقِ - وَهُوَ أَنَّ خُطُواتِ قَدَمَيْ سَيِّدِهِ قَدْ تَغَيَّرَتْ بَعْدَ أَنْ تَجاوَزَ البابَ ، وَكَأَنَّهُ راحَ يَمْشي عَلى أَطْرافِ أَصابِعِهِ . وَلَمْ تَكُنْ ثَمَّةَ عَلامَةٌ تَدُلُّ عَلى حُدوثِ أَيِّ

عُنْفٍ عَلى جُثَّةِ سِير تشارلز . وَقالَ الدُّكْتور إِنَّهُ كانَ عَلى وَجْهِهِ تَعْبيرٌ ، كانَ مِنَ الغَرابَةِ بِحَيْثُ لَمْ يَتَعَرَّفِ الدُّكْتور مورتيمر عَلى صَديقِهِ أَوَّلَ الأَمْرِ ؛ إِلا أَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ بالشَّيْءِ غَيْرِ الطَّبيعِيِّ بِالنِّسْبَةِ لِمَنْ كانَ مُصاباً بِمَرَضِ القَلْبِ. وَقَدْ وَضَعَتْ نَتيجَةُ التَّحْقيقِ نِهايَةً لِكُلِّ القِصَصِ البَلْهاءِ ، الَّتي كانَ النَّاسُ يَتَهامَسونَ بِها في الأَماكِنِ المُجاوِرَةِ في تِلْكَ القَضِيَّةِ .

« وَلَعَلَّ تِلْكَ الرِّواياتِ تَجْعَلُ مِنَ المُتَعَذِّرِ أَنْ يُفَكِّرَ إِنْسانٌ في الإِقامَةِ بِذَلِكَ القَصْرِ . وَلَكِنْ من المُهِمِّ أَنْ يُناطَ بِأَحَدِ أَعْضاءِ تِلْكَ الأُسْرَةِ الاسْتِقْرارُ فيهِ ، وَأَنْ يُعْهَدَ إِلَيْهِ بِالقِيامِ بِكُلِّ أَعْمالِ سِير تشارلز الكَريمَةِ . وَنَحْنُ نُدْرِكُ أَنَّ أَقْرَبَ أَقْرِبائِهِ هُوَ سِير هنري باسكرفيل ، وَهُوَ ابْنُ أَصْغَرِ أَشِقّاءِ سِير تشارلز باسكرفيل ، وَقَدْ عُرِفَ عَنْهُ مُؤَخَّراً أَنَّهُ يَعيشُ في أَمْريكا . وَقَدْ بُدِئَ في عَمَلِ التَّحَرِّياتِ اللازِمَةِ بِغَرَضِ العُثورِ عَلَيْهِ وَإِطْلاعِهِ عَلى بَياناتِ تِلْكَ الثَّرْوَةِ الضَّخْمَةِ .

« هَذِهِ هِيَ الحَقائِقُ العامَّةُ ، يا سَيِّدُ هولمز ، عَنْ مَوْتِ سِير تشارلز باسكرفيل .»

« لَقَدْ سَبَقَ أَنْ قُلْتَ إِنَّ هَـذا المَقالَ يَحْتَوي عَلى كُلِّ

الحَقائِقِ العامَّةِ . فَقُلْ لي ما هِيَ الحَقائِقُ الخاصَّةُ ؟»

« إِنّي لَمُخْبِرُكَ الآنَ بِما أَخْفَيْتُهُ عَنْ سائِرِ النّاسِ : إِنَّهُ لا يَعيشُ عَلى المُسْتَنْقَعِ إِلا القَليلُ مِنَ القَوْمِ ؛ وَبِذَلِكَ لا يَجِدُ المَرْءُ سَبيلاً سَهْلاً لاتِّخاذِ أَصْدِقاءَ ؛ وَلِهَذا السَّبَبِ أَيْضاً عَرَفْتُ الكَثيرَ مِنْ سِير تشارلز باسكرفيل . وَما عَدا سِير ستيبلتن العالِمَ الطَّبيعِيَّ لَمْ يَكُنْ هُناكَ أَساتِذَةٌ عُلَماءُ سِواهُ في تِلْكَ المِنْطَقَةِ . وَقَدْ تَوَطَّدَتْ بَيْنَنا أَواصِرُ الصَّداقَةِ نَظَراً لاشْتِراكِنا في العِلْمِ . وَقَدْ أَمْضَيْنا مَعاً أُمْسِيّاتٍ عَديدَةً رائِعَةً، في دِراسَةِ تَشْريحِ القَبائِلِ الإِفْريقِيَّةِ المُخْتَلِفَةِ.

« وَفي غُضونِ الأَشْهُرِ القَليلَةِ الماضِيَةِ صارَ واضِحاً لي أَنَّ سِير تشارلز كانَ شَديدَ القَلَقِ ، وَقَدْ تَلَقّى القِصَّةَ الَّتي قَصَصْتُها عَلَيْكُما بِهَمٍّ شَديدٍ . وَبالرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ كانَ يَعيشُ عَلى أَرْضِهِ ، فَما كانَ شَيْءٌ يُقْنِعُهُ بِأَنْ يَخْرُجَ إِلى المُسْتَنْقَعِ أَثْناءَ اللَّيْلِ . وَكانَ عَلى ثِقَةٍ تامَّةٍ بِأَنَّ أُسْرَتَهُ كُلَّها سَوْفَ تَموتُ ميتَةً شَنيعَةً ، وَأَنَّهُ تُصاحِبُهُ في غَدَواتِهِ وَرَوْحاتِهِ روحٌ شِرّيرَةٌ مُفْزِعَةٌ . وَقَدْ نَصَحْتُهُ أَنْ يُمْضِيَ فَتْرَةً في لَنْدَن ؛ إِذْ عَرَفْتُ أَنَّ قَلْبَهُ ضَعيفٌ ، وَأَنَّ القَلَقَ الأَهْوَجَ الَّذي عاشَ فيهِ لا بُدَّ سَيَكونُ لَهُ تَأْثيرٌ سَيِّئٌ عَلى صِحَّتِهِ . وَدارَ بِخَلَدي أَنَّهُ بَعْدَ قَضاءِ بِضْعَةِ أَشْهُرٍ بَيْنَ مَباهِجِ لَنْدَن سَوْفَ

يعودُ رَجُلاً آخرَ غيرَ الَّذي كانَهُ . وَكانَ لِسير ستيبلتن ، الَّذي هُوَ صَديقٌ لِكِلَيْنا ، الرَّأيُ نَفْسُهُ. لكِنْ في النِّهايَةِ وَقَعَتِ الواقعةُ المُرَوِّعَةُ .

« فَفي لَيْلَةِ مَوْتِ سير تشارلز بَعَثَ إليَّ خادِمُهُ باريمور بِرِسالَةٍ، وَاسْتَطَعْتُ الوُصولَ إلى أراضي باسكرڤيل في خِلالِ ساعَةٍ واحِدَةٍ ، حَيْثُ اقْتَفَيْتُ أَثَرَ الأَقْدامِ عَلى مَمَرِّ أَشْجارِ السَّرْوِ ، وَشاهَدْتُ البَوَّابَةَ الَّتي رُبَّما يَكونُ قَدْ تَوَقَّفَ عِنْدَها مُنْتَظِراً ، وَلَحَظْتُ أَنَّ المَكانَ كانَ خالِياً مِنْ آثارِ الأَقْدامِ ما عَدا قَدَمَيْ باريمور على ذَلِكَ المَمَرِّ . ثُمَّ انْحَنَيْتُ عَلى الجُثَّةِ أَتَفَحَّصُها بِعِنايَةٍ ، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ قَدْ مَسَّها حَتّى وُصولي إلى ذلِكَ المَكانِ وَكانَ سير تشارلز مُلْقًى عَلى وَجْهِهِ ، وَذِراعاهُ مُمَدَّدانِ إلى جَنْبَيْهِ ، وَأَصابِعُهُ مُغْتَرِزَةٌ عَلى الأَرْضِ ، وَكانَ وَجْهُهُ مُشَوَّهاً بِحَيْثُ لَمْ أَتَعَرَّفْ عَلَيْهِ إلا بِصُعوبَةٍ بالِغَةٍ ، بَيْدَ أَنَّ باريمور لَمْ يُدْلِ بِالحَقيقَةِ كُلِّها ، إذْ صَرَّحَ بِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُناكَ أَيَّةُ آثارٍ عَلى الأَرْضِ حَوْلَ الجُثَّةِ إنَّهُ لَمْ يَلْحَظْ ذلِكَ ، في حينِ أَنّي رَأَيْتُها ؛ فَعلى مَسافَةٍ غَيْرِ بَعيدَةٍ كانَتْ هُناكَ بِوُضوحٍ تامٍّ ».

« آثارُ أَقْدامٍ ؟»

« نَعَمْ ، آثارُ أَقْدامٍ ».

« لِرَجُلٍ أَمْ لامْرَأَةٍ ؟»

وَنَظَرَ الدُّكْتور مورتيمر إلَيْنا لَحْظَةً ، وَانْخَفَضَ صَوْتُهُ إلى ما يُقارِبُ الهَمْسَ ، وَهُوَ يُجيبُ :

« آثارُ أَقْدامِ كَلْبٍ عَظيمِ الجُثَّةِ ، يا سَيِّدُ هولمز !»

الفَصْلُ الثّالِثُ

أظْهَرَ صَوْتُ الطَّبيبِ المُرْتَعِشُ أنَّهُ قَدْ زَلْزَلَهُ ما رَوى لَنا ، أمّا هولمز فَقَدْ مالَ إلى الأمامِ وقَدْ بَلَغَ مِنْهُ القَلَقُ مَبْلَغَهُ ، وبَرَقَتْ عَيْناهُ كَعادَتِهِما كُلَّما شَغَلَهُ أمْرٌ .

« ولِمَ لَمْ يَرَ أحَدٌ غَيْرُكَ تِلْكَ الآثارَ ؟ »

« كانَتْ عَلى مَسافَةِ عِشْرينَ مِتْرًا مِنَ الجُثَّةِ ، ولَمْ يَظُنَّ أحَدٌ بِوُجودِها سِوايَ ؛ لِكَوْني أنا الّذي عَرَفْتُ هَذِهِ القِصَّةَ . »

« وَكَيْفَ كانَ الطَّقْسُ ؟ »

« رَطْبًا بارِدًا . »

« وَ شَكْلُ المَمَرِّ ؟ »

« هُناكَ صَفٌّ مِنْ أشْجارِ السَّرْوِ عَلى جانِبَيْهِ ، أمّا المَمْشى الأوْسَطُ فَعَرْضُهُ حَوالى ثَلاثَةِ أمْتارٍ . »

« هَلْ هُناكَ بَوّابَةٌ ؟ »

« أجَلْ ، البَوّابَةُ الصَّغيرَةُ الّتي تُؤَدّي إلى المُسْتَنْقَعِ . »

« أثَمَّةَ أيَّةُ فُتْحَةٍ أخْرى ؟ »

« لا . »

« إذًا ، فَلِكَيْ يَصِلَ المَرْءُ إلى مَمَرِّ أشْجارِ السَّرْوِ ، إمّا أنْ يَأْتِيَ مِنَ الخَلْفِ ، مِنْ جِهَةِ الدّارِ ، وإمّا أنْ يَدْخُلَهُ بِطَريقِ البَوّابَةِ مِنْ ناحِيَةِ المُسْتَنْقَعِ . »

« هُناكَ طَريقٌ يَمُرُّ مِنْ خِلالِ الكوخِ الصَّيْفِيِّ في النِّهايَةِ . »

« وَهَلْ وَصَلَ إلَيْهِ سير تشارلز ؟ »

« لا . كانَ راقِدًا عَلى بُعْدِ مِتْرَيْنِ مِنْهُ . »

« وَالآنَ أخْبِرْني ، يا دُكْتور مورتيمر ، وَهَذا أمْرٌ مُهِمٌّ ، ما هِيَ العَلاماتُ الّتي رَأَيْتَها عِنْدَ البَوّابَةِ ؟ »

« لا شَيْءَ سِوى أنَّ سير تشارلز كانَ واضِحًا وُقوفُهُ لِمُدَّةِ خَمْسٍ أوْ عَشْرِ دَقائِقَ . »

« كَيْفَ عَرَفْتَ ذَلِكَ ؟ »

« لأنَّ الرَّمادَ كانَ قَدْ سَقَطَ مِنْ سيجارِهِ . »

« عَظيمٌ ! إنَّ ما تُعْجَبُ بِهِ ، يا واطْسُن ، لَشَيْءٌ مُعين حقًا ! أَلَمْ يَكُ ثَمَّةَ آثارُ أقْدامٍ ؟»

« كانَ مُختَبِطًا بَعْضُها بِبَعْضٍ . لَقَدْ تَرَكَ سِير تشارلز آثارَهُ على كُلِّ هَذا القِسْمِ مِنَ المَمَرِّ ، وَلَمْ أَرَ آثارًا أُخْرى ».

وَحَدَبَ شِرْلوك هولمز رُكْبَتَيْهِ بِيَدِهِ في قَلَقٍ ، وَهُوَ يَصيحُ :

« لِمَ لَمْ أَكُنْ هُناكَ ! إنَّها قَضِيَّةٌ ذاتُ أَهَمِّيَّةٍ غَيْرِ مادِّيَّةٍ ، وَتَحْتاجُ إلى مُعالَجَةٍ عِلْمِيَّةٍ . آهٍ ، يا دُكْتور مورتيمر ! لِماذا لَمْ تَأْتِني قَبْلَ ذَلِكَ ؟»

« هُنالِكَ أُمورٌ يَقِفُ فيها أَمْهَرُ العُلَماءِ وَأَعْظَمُهُمْ حِيرَةً عاجِزًا مَكْتوفَ اليَدَيْنِ . وَمُنْذُ قَضى باسكرفيل نَحْبَهُ ، يا سَيِّدُ هولمز ، بَلَغَتْ سَمْعي بِضْعَةُ أَشْياءَ غَريبَةٍ ، سَمِعْتُ أَنَّهُ قَبْلَ حُدوثِ هَذِهِ الحادِثَةِ المُرَوِّعَةِ ، رَأى بَعْضُ النّاسِ عَلى الرِّمالِ ، مَخْلوقًا يُشْبِهُ كَلْبَ آلِ باسكرفيل ، وَلا يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ مِنْ أَيِّ صِنْفٍ مِنَ الحَيَواناتِ المَألوفَةِ ، وَاتَّفَقَ الجَميعُ عَلى أَنَّهُ كانَ مَخْلوقًا ضَخْمَ الجُثَّةِ مُرْعِبًا ، يَتَنَفَّسُ سَعيرًا . وَعِنْدَما سَأَلْتُ أُولَئِكَ القَوْمَ ، وَهُمْ قَدْ عُرِفوا بِالعَقْلِ وَالاتِّزانِ ، اتَّفَقوا جَميعًا في أَقْوالِهِمْ عَنْ ذَلِكَ الحَيَوانِ غَيْرِ الطَّبيعِيِّ ، الَّذي كانَ يُشْبِهُ تَمامَ الشَّبَهِ الكَلْبَ الَّذي

ذُكِرَ في القِصَّةِ . وَقَدْ عَمَّ الفَزَعُ المِنْطَقَةَ كُلَّها ، وَلَنْ يَتَأَتّى لِأَحَدٍ عُبورُ ذَلِكَ المُسْتَنْقَعِ لَيْلًا ما لَمْ يُؤْتَ شَجاعَةً نادِرَةً .»

« وَهَلْ تَعْتَقِدُ ، بِوَصْفِكَ عالِمًا في الأُمورِ الطَّبيعِيَّةِ ، أَنَّ هَذا الشَّيْءَ لَيْسَ طَبيعِيًّا ؟»

« كانَ الكَلْبُ الأَصْلِيُّ مِنَ الطَّبيعِيَّةِ بِدَرَجَةٍ كافِيَةٍ لِأَنْ يُمَزِّقَ عُنُقَ رَجُلٍ ، وَمَعَ ذَلِكَ كانَ شَيْطانِيًّا – بِالمِثْلِ .»

« أَرى أَنَّكَ صَدَّقْتَ القِصَّةَ . أَما وَقَدِ اعْتَنَقْتَ هَذا الرَّأْيَ

فلماذا جئتَ تنشدُ عندي المساعدةَ ؟»

نظرَ الدكتور مورتيمر إلى ساعتِهِ ، وقالَ : « سير هنري باسكرفيل سوفَ يصلُ إلى لندن بعدَ ساعةٍ وربعِ الساعةِ تماماً. وعندما تحرّينا عنْ هذا السيّدِ المحترمِ تبيّنَ لنا أنّهُ كانَ يعملُ في كندا ».

« أليسَ هناكَ أحدٌ غيرُهُ ممّنْ يطالبونَ بالميراثِ ؟»

« نعمْ . إنَّ القريبَ الآخرَ الّذي جمعْنا عنْهُ المعلوماتِ هُوَ رودجر باسكرفيل ، الأخُ الأصغرُ لثلاثةِ أشقاء ، كانَ سير تشارلز أكبرَهُمْ أمّا الأخُ الثاني ، الّذي ماتَ شابّاً ، فكانَ والدَ هذا الشّابِّ هنري . وأمّا الثّالثُ ، رودجر ، فكانَ سبّةً في جبينِ العائلةِ، وقدْ جمعَ كُلَّ صفاتِ الاستبدادِ المتأصّلةِ في عائلةِ باسكرفيل . وقدْ أخبروني أنّهُ كانَ يمثّلُ صورةَ الأسرةِ المتمثّلة في هوغو الشّيخِ . ولَمْ يكُنْ ثَمَّ بُدٌّ مِنْ أنْ يهربَ مِنْ إنجلترا إلى أمريكا الوسطى ، حيثُ ماتَ بالحُمّى الصّفراءِ في سنة ١٨٧٦ . وبذلكَ يُصبحُ هنري آخرَ أفرادِ أسرةِ باسكرفيل ، ويتعيّنُ عليَّ أنْ أستقبلَهُ في محطّةِ ووترلو والآنَ ، يا سيّدُ هولمز ، بمَ تنصحُني أنْ أفعلَ معَهُ ؟»

« ولماذا لا يذهبُ رأساً إلى منزلِ الأسرةِ ؟ هلْ ثمّةَ قوًى [illegible] شريرةٌ تجعلُ مِنْ دارتمور مكاناً غيرَ آمنٍ لعائلةِ باسكرفيل ؟»

« أ هذا رأيُكَ ؟»

« نعمْ ، ذلكَ يبدو محتملاً . لكنْ إذا كانتْ فكرتُكَ عنْ وجودِ أرواحٍ شريرةٍ صحيحةً ، فإنَّ مِنَ الميسورِ أنْ يصيبَ ذلكَ الأمرُ الشابَّ في لندن كما يصيبُهُ في دارتمور ، ولنْ يتخيّلَ [illegible] أنْ للشّيطانِ قوًى خفيّةً محليّةً فقطْ أنا أنصحُكَ أنْ [illegible] أجرَ عربةً وتذهبَ بها إلى محطّةِ ووترلو لمقابلةِ سير هنري باسكرفيل . ولا تخبرْهُ بشيءٍ حتّى أقرّرَ ما علينا فعلُهُ . فهلاّ عُدْتَ غداً في السّاعةِ العاشرةِ ، مصحوباً بسير هنري باسكرفيل ؟»

« إنّي فاعلٌ ، يا سيّدُ هولمز ».

ثمَّ انطلقَ لتوّهِ .

وعادَ هولمز إلى مقعدِهِ وعليهِ أماراتُ الارتياحِ ، وقالَ : « أ خارجٌ أنتَ ، يا واطسُن ؟ إذا ما ذهبْتَ إلى محلِّ برادلي

فَهَلاَّ سَأَلْتَهُ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيَّ بِعُلْبَةٍ مِنْ أَشَدِّ أَنْواعِ الطُّبَاقِ مَذاقًا ؟»

أَعْرِفُ أَنَّهُ كانَ مِنَ الضَّرُورِيِّ أَنْ يَخْلُو صَدِيقِي بِنَفْسِهِ إذا ما احْتاجَ إلى شَيْءٍ مِنَ التَّفْكِيرِ العَمِيقِ ؛ وَمِنْ ثَمَّ قَضَيْتُ اليَوْمَ كُلَّهُ في النّادي . وَلَمْ أَعُدْ إلى شارِعِ بيكر إلا عِنْدَ المَغْرِبِ . وَظَنَنْتُ أَوَّلَ الأَمْرِ أَنَّ حَرِيقًا شَبَّ في المَكانِ ، لأَنَّ الغُرْفَةَ كانَتْ عاصَّةً بِالدُّخانِ ، لكِنَّهُ كانَ دُخانَ الطُّبَاقِ النَّفّاذَ الَّذي أَصابَنِي بِنَوْبَةٍ مِنَ السُّعالِ .

قالَ هولمز : « افْتَحِ النّافِذَةَ ، يا واطْسُن . أَراكَ قَضَيْتَ اليَوْمَ بِتَمامِهِ في ناديكَ ».

« فِعْلاً ، وَلكِنْ كَيْفَ .. ؟»

فَتَبَسَّمَ ضاحِكًا مِمّا فوجِئْتُ بِهِ ، وَقالَ مُقاطِعًا :

« أَحَدُ السّادَةِ يَخْرُجُ في اليَوْمِ المَطِيرِ المُوحِلِ ، ثُمَّ يَعودُ في المَساءِ ، وَقُبَّعَتُهُ وَحِذاؤُهُ لا يَزالانِ نَظِيفَيْنِ وَلامِعَيْنِ ، لَقَدْ كانَ – إِذًا – في مَكانٍ واحِدٍ طَوالَ اليَوْمِ . أَلَيْسَ هذا واضِحًا ؟»

« بَلى ، إِنَّهُ واضِحٌ ».

« إِنَّ العالَمَ لَمُفْعَمٌ بِأَشْياءَ واضِحَةٍ جَلِيَّةٍ ، وَمَعَ ذلِكَ ، لا

يُلاحِظُها النّاسُ : بَعْدَ أَنْ تَرَكْتَنِي أَرْسَلْتُ في طَلَبِ خَرِيطَةٍ كَبِيرَةٍ لِذلِكَ الجُزْءِ مِنَ المُسْتَنْقَعِ ، وَها هِيَ ذي أَمْلاكُ باسكرفيل في الوَسَطِ ، وَمَجْموعَةُ المَباني الصَّغِيرَةِ الَّتي تُؤَلِّفُ قَرْيَةَ جريمبين ، حَيْثُ يَعِيشُ الدُّكْتُور مورتيمر وَعَلى مَسِيرَةِ ثَمانِيَةِ كيلومِتْراتٍ مِنْ تِلْكَ الأَمْلاكِ بَعْضُ البُيُوتِ المُبَعْثَرَةِ كَما تَرى . وَالبَيْتُ الظّاهِرُ هُنا رُبَّما كانَ مَسْكَنَ العالِمِ الطَّبِيعِيِّ ستيبلتن . وَهُنا نَماذِجُ مِنَ الأَكْواخِ عَلى الرِّمالِ . وَبَعْدَ عِشْرِينَ كيلومِتْرًا مِنْ هُنا يَقَعُ السِّجْنُ الكَبِيرُ في برنستاون ، وَحَوْلَ كُلِّ هذا يَقَعُ المُسْتَنْقَعُ الخاوي المَهْجُورُ ».

« لا بُدَّ أَنَّهُ مَكانٌ مُوحِشٌ ».

« أَجَلْ ، فَإِذا أَرادَ الشَّيْطانُ التَّدَخُّلَ في شُئُونِ الإِنْسانِ ، فَإِنَّ ما زَعَمَهُ الدُّكْتُور مورتيمر صَحِيحٌ بِغَيْرِ شَكٍّ ، وَإِنَّنا نَتَعامَلُ مَعَ قُوًى خارِجَ نَوامِيسِ الطَّبِيعَةِ ، وَسَيَكُونُ هذا نِهايَةَ اسْتِفْساراتِنا . عَلى أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ نَدْرُسَ كُلَّ الإِيضاحاتِ المُمْكِنَةِ ».

« أَ كُنْتَ تُفَكِّرُ وَتَدْرُسُ هذِهِ الحالَةَ ؟ ماذا تَرى في تَغَيُّرِ آثارِ الأَقْدامِ ، عَلى سَبِيلِ المِثالِ ؟»

« قالَ ماريمور إِنَّ الرَّجُلَ كانَ يَمْشِي عَلى أَطْرافِ أَصابِعِهِ في

هَذِهِ البُقْعَةِ مِنْ مَمَرِّ أشْجارِ السَّرْوِ ».

« وَلِمَ يَمْشي عَلى أطْرافِ أصابِعِهِ في هَذا المَمَرِّ ؟ بَلْ كانَ يَعْدو ، يا واطْسُن ، يَعْدو كالمَسْعورِ طَلَباً لِلنَّجاةِ ، يَعْدو حَتّى انْفَجَرَ قَلْبُهُ وَخَرَّ صَريعاً عَلى وَجْهِهِ ».

« مِنْ أيِّ شَيْءٍ يَعْدو هارِباً ؟ »

« هذه هِيَ المُشْكِلَةُ . ثَمَّةَ دَلائِلُ تُشيرُ إلى أنَّ الرَّجُلَ قَدْ أطارَ الخَوْفُ لُبَّهُ ، قَبْلَ أنْ يَبْدَأ في العَدْوِ ».

« وَكَيْفَ تَأتّى لَكَ أنْ تَقولَ ذَلِكَ ؟ »

« إنّي أفْتَرِضُ أنَّ سَبَبَ فَزَعِهِ أتاهُ عَبْرَ المُسْتَنْقَعِ . وَإذا كانَ الأمْرُ كَذَلِكَ فَلَيْسَ ثَمَّ سِوى رَجُلٍ واحِدٍ لَمْ يَحْضُرْ بِبالِهِ ، وَهُوَ الَّذي يَكونُ قَدْ هَرَبَ مِنَ الدّارِ بَدَلاً مِنَ الاتِّجاهِ نَحْوَهُ ، جَرى في الاتِّجاهِ الَّذي تَكونُ المُساعَدَةُ فيهِ أقَلَّ ما يُمْكِنُ . تُرى مَنْ كانَ يَنْتَظِرُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ ؟ وَلِماذا كانَ يَنْتَظِرُهُ في مَمَرِّ أشْجارِ السَّرْوِ ، بَدَلاً مِنِ انْتِظارِهِ في دارِهِ ؟ لَقَدْ كانَ الرَّجُلُ كَبيرَ السِّنِّ ، وَلَمْ تَكُنْ حالَتُهُ الصِّحِّيَّةُ عَلى ما يُرامُ ، وَكانَتِ اللَّيْلَةُ رَطْبَةً بارِدَةً . وَهَلْ مِنَ الطَّبيعِيِّ أنْ يَقِفَ هُناكَ خَمْسَ دَقائِقَ أوْ عَشْراً ، كَما قَدَّرَ الدُّكْتور مورتيمر مِنْ سُقوطِ رَمادِ السّيجارِ ؟ »

« لَكِنَّهُ تَعَوَّدَ الخُروجَ لِلنُّزْهَةِ كُلَّ لَيْلَةٍ ».

« لا أعْتَقِدُ أنَّهُ كانَ يَنْتَظِرُ عِنْدَ البَوّابَةِ الَّتي تُوَصِّلُ إلى المُسْتَنْقَعِ كُلَّ لَيْلَةٍ . حَقّاً قيلَ لَنا إنَّهُ كانَ دائِماً يَتَحاشى المُسْتَنْقَعَ . وَتِلْكَ اللَّيْلَةَ انْتَظَرَ هُناكَ – وَهِيَ اللَّيْلَةُ السّابِقَةُ لِعَزْمِهِ الانْتِقالَ إلى لَنْدَن . لَقَدْ بَدَأتْ تَتَكَشَّفُ لي مَلامِحُ الأحْداثِ . واطْسُن ، هَلْ لي أنْ أسْألَكَ إحْضارَ كَمَنْجَتي ؟ فَلْنُرْجِئْ كُلَّ ما يَرِدُ مِنْ أفْكارٍ جَديدَةٍ في هَذِهِ القَضِيَّةِ ، حَتّى يَتَسَنّى لَنا مُقابَلَةُ الدُّكْتور مورتيمر وَسير هنري باسكرفيل ، صَبيحَةَ الغَدِ ».

الفَصْلُ الرّابعُ

رُفع الطَّعامُ مِنْ فوْقِ مائدَةِ الإفْطارِ مُبَكِّرًا ، وَراحَ هولمز ينْتظِرُ زائِرِيْه . وَجاءَ الدُّكْتور مورتيمر متبوعًا برجُلٍ ضئيلِ الجسْمِ ، داكِنِ العَيْنَيْنِ ، يُناهِزُ الثّلاثينَ مِنْ عُمْرِهِ . وَكانَ قَوِيَّ البِنْيَةِ ، ولَهُ حاجبانِ أسْوَدانِ سَميكانِ ، وَقدْ لَوَّحَتْهُ الشّمْسُ كَشخصٍ قضى مُعْظمَ حَياتِهِ في الهَواءِ الطَّلْقِ . وَكانَ يَرْتدي سُتْرَةً ذاتَ لَوْنٍ بُنّيٍّ في حُمْرَةٍ .

قالَ الدُّكْتور مورتيمر : « هَذا هُوَ سير هنري باسكرڤيل . وَالأمْرُ الغريبُ ، يا سيِّدُ هولمز ، أنَّهُ لَوْ قَرَّرَ عدمَ الحُضورِ معي لِرُؤْيتِكَ هذا الصَّباحَ ؛ لَجِئْتُ أنا بِمُفْرَدي بِأيَّةِ طَريقَةٍ . إني لأعْلَمُ أنَّكَ تُحاوِلُ حَلَّ المُعْضِلاتِ ، وَعِنْدي هذا الصَّباحَ واحِدَةٌ مِنْ هَذا النّوْعِ ، اسْتَعْصَى عَلَيَّ حَلُّها ، وَإنَّها لِهَذا الخِطابُ ، إذا شِئْتَ أنْ تُسَمّيَهُ خِطابًا ، وَقَدْ وَصَلَني صَباحَ اليَوْمِ . »

ثُمَّ وَضَعَ الظَّرْفَ عَلى الطّاوِلَةِ ، وَانْكَبَبْنا كُلُّنا عَلَيْهِ عاكِفينَ وَكانَ العُنْوانُ – سير هنري باسكرڤيل ، مُسْتَشْفَى فُنْدُقِ ورثمبرلاند مَكْتوبًا بِغَيْرِ نِظامٍ ، وَبِالحُروفِ الكَبيرَةِ وَكانَتْ علامَةُ البَريدِ تشيرنغ كروس . وَكانَ تاريخُ إرْسالِ الخِطابِ اللَّيْلَةَ السّابِقَةَ .

سَأَلَ هولمز : « مَنِ الّذي عَرَفَ أنَّكُما ذاهِبانِ إلى فُنْدُقِ نورثمبرلاند ؟ »

« ما كانَ لأحَدٍ أنْ يَعْرِفَ ؛ فَلَمْ نُقَرِّرْ ذَلِكَ إلا بَعْدَ أنْ قابَلْتُ الدُّكْتور مورتيمر . »

« أَحَقًّا كانَ ذَلِكَ ؟ يَلوحُ لي أنَّ شَخْصًا ما كانَ مُهْتَمًّا بِتَحَرُّكاتِكُما . »

ثُمَّ أخَذَ قِطْعَةَ وَرَقٍ مِنَ الظَّرْفِ ، وَقَدْ كُتِبَتْ عَلَيْها جُمْلَةٌ واحِدَةٌ مُكَوَّنَةٌ مِنْ حُروفٍ لَصِقٍ عَلى الوَرَقَةِ ، وَهِيَ : « إذا عَزَّتْ عَلَيْكَ نَفْسُكَ فَابْتَعِدْ عَنِ المُسْتَنْقَعِ ! » وَكانَتْ كَلِمَةُ مُسْتَنْقَعٍ وَحْدَها مَكْتوبَةً بِالمِدادِ .

قالَ سير هنري باسكرڤيل : « ما مَعْنى ذَلِكَ بِحَقِّ السَّماءِ ؟! وَمَنْ هُوَ ذَلِكَ الّذي يَهْتَمُّ بِشُئوني الخاصَّةِ كُلَّ ذَلِكَ الاهْتِمامِ ؟ »

« سَوْفَ تُشارِكُنا مَعْلوماتِنا قَبْلَ أنْ تُغادِرَ هَذِهِ الغُرْفَةَ ، يا سِير هنري . أَعِدُكَ بِذَلِكَ . هَلْ عِنْدَكَ نُسْخَةٌ قَديمَةٌ مِنَ التّايمز ، يا واطْسُن ؟ أَعْطِني ، مِنْ فَضْلِكَ ، الوَرَقاتِ الدّاخِلِيَّةَ ، وَمَعَها المَقالُ الافْتِتاحِيُّ .»

وَ تَصَفَّحَها بِسُرْعَةٍ ، قائِلاً : « نَعَمْ ! مَقالٌ رائِعٌ عَنِ السّوقِ الحُرَّةِ . اِسْمَحْ لي أَنْ أَتْلُوَ عَلَيْكَ جُزْءاً مِنْهُ « لَعَلَّكَ تَتَصَوَّرُ أَنَّ تِجارَتَكَ الخاصَّةَ أَوْ صِناعَتَكَ الخاصَّةَ سَتُشَجِّعُها الضَّرائِبُ المُقَرَّرَةُ عَلى التِّجارَةِ الأَجْنَبِيَّةِ ، غَيْرَ أَنَّ هذهِ الضَّرائِبَ عَلى المَدى الطَّويلِ سَوْفَ تُبْعِدُ المالَ عَنِ الدَّوْلَةِ ، وَتُخَفِّضُ مِنْ قيمَةِ الصِّناعَةِ الَّتي نَسْتَوْرِدُها مِنَ الخارِجِ ، وَتَهْبِطُ بِأَمْوالِ الدَّخْلِ القَوْمِيِّ في هَذِهِ الجَزيرَةِ .» ماذا تَرى في ذَلِكَ ، يا واطْسُن ؟ » قالَ ذَلِكَ هولمز وَكَأَنَّهُ يَصْرُخُ ، في فَرَحٍ بالِغٍ ، وَهُوَ يَفْرُكُ يَدَيْهِ .

« إِنّي أَعْتَرِفُ أَنَّهُ لا تَرابُطَ بَيْنَ هَذِهِ الكَلِماتِ .»

« وَمَعَ ذَلِكَ ، يا عَزيزي واطْسُن ، ثَمَّ تَرابُطٌ وَثيقٌ ، فَإِنَّ واحِدَةً تَأْخُذُ مِنَ الأُخْرى : أَنْتَ ، لَكَ — الحَياة ، قيمَة — ابْتَعِدْ ، عَنِ الـ ...

أَ وَلَسْتَ تَرى مِنْ أَيْنَ اشْتُقَّتْ هَذِهِ الكَلِماتُ ؟»

صاحَ سِير هنري : « بِحَقِّ السَّماواتِ أَنْتَ عَلى حَقٍّ !»

« أَيُّ ضَلالٍ مِنَ الشَّكِّ سَوْفَ تَنْقَشِعُ بِحَقيقَةِ « ابْتَعِدْ » « عَنِ الـ » ؛ فَكِلْتاهُما اقْتُطِعَتا في قِطْعَةٍ واحِدَةٍ .»

« الحَقيقَةُ ، يا سَيِّدُ هولمز ، أَنَّ هَذا فَوْقَ ما كُنْتُ أَتَصَوَّرُهُ .» قالَ هَذا الدُّكْتور مورتيمر ناظِراً إِلى صَديقي في دَهْشَةٍ . ثُمَّ مَضى يَسْأَلُ : « كَيْفَ تَحُلُّها ؟»

« أَنا أَفْتَرِضُ ، يا دُكْتور ، أَنَّكَ تَسْتَطيعُ أَنْ تُمَيِّزَ أَحَدَ رُؤَساءِ القَبائِلِ الأُخْرى عَنِ الآخَرِ .»

« يَقيناً .»

« وَلَكِنْ كَيْفَ ؟»

« لأَنَّها مُهِمَّتي . إِنَّ الفُروقَ واضِحَةٌ .»

« وَهِيَ مُهِمَّتي بِالمِثْلِ ، وَالفُروقُ واضِحَةٌ أَيْضاً . وَثَمَّ اخْتِلافٌ كَبيرٌ أَمامَ عَيْنَيَّ بَيْنَ جَريدَةِ التّايمز ، وَطِباعَةِ صَحيفَةٍ رَخيصَةٍ ، مِثْلَما يَكونُ الاخْتِلافُ بَيْنَ مُواطِنَيْكَ الاثْنَيْنِ ، فَمَعْرِفَةُ نَموذَجِ المَطْبوعِ أَساسٌ في دِراسَةِ الجَريمَةِ .»

« إِذاً فَقَدْ قَطَعَ أَحَدُ الأَشْخاصِ الرِّسالَةَ بِمِقَصٍّ ، ثُمَّ لَصَقَها

عَلى الصَّحيفَةِ. بَيْدَ أنّني أوَدُّ أنْ أعْرِفَ لِماذا كُتِبَتْ كَلِمَةُ مُسْتَنْقَعٍ ».

« لأنَّهُ لَمْ يَجِدْها في المَطْبوعِ ، وَالكَلِماتُ الأخْرى كانَتْ كُلُّها بَسيطَةً ، وَقَدْ توجَدُ في النُّسْخَةِ الَّتي عِنْدي مِنَ الصَّحيفَةِ ، لكِنَّ كَلِمَةَ مُسْتَنْقَعٍ أقَلُّ ذِكْراً ».

« بِالطَّبْعِ ! وَهَذا يُوَضِّحُ لَنا ذَلِكَ . هَلْ تَرى شَيْئاً آخَرَ في هَذِهِ الرِّسالَةِ ، يا سَيِّدُ هولمز ؟»

« ثَمَّةَ عَلامَةٌ أوْ عَلامَتانِ : العُنْوانُ ، كَما تَلْحَظُ ، مَكْتوبٌ بِحُروفٍ كَبيرَةٍ خَشِنَةٍ ، عَلى حينِ أنَّ التّايمز يَقْرَؤُها عادَةً المُتَعَلِّمونَ. ورُبَّما رَتَّبَ الخِطابَ بِيَدِ رَجُلٍ مُتَعَلِّمٍ تَعَمَّدَ إظْهارَ نَفْسِهِ كَرَجُلٍ غَيْرِ مُتَعَلِّمٍ . وَنُلاحِظُ أنَّ الكَلِماتِ لَمْ تُلْصَقْ في خَطٍّ مُسْتَقيمٍ ، فَبَعْضُها أعْلى كَثيراً مِنَ البَعْضِ الآخَرِ ، وَهَذا يُشيرُ عَلى ما أظُنُّ إلى التَّعَجُّلِ وَالتَّسَرُّعِ . لِماذا كانَ كاتِبُ الرِّسالَةِ عَلى عَجَلٍ ، مَعَ أنَّ أيَّ خِطابٍ يُرْسَلُ بِالبَريدِ في أيِّ وَقْتٍ في اللَّيْلَةِ الماضِيَةِ سَوْفَ يَصِلُ إلى سير هنري ، قَبْلَ أنْ يُغادِرَ فُنْدُقَهُ هَذا الصَّباحَ ؟ هَلْ خَشِيَ الكاتِبُ أنْ يُقاطِعَهُ أحَدٌ ؟ وَمَنْ هُوَ ذَلِكَ الشَّخْصُ ؟»

قالَ الدُّكْتور مورتيمر : « نَحْنُ الآنَ نَقومُ بِعَمَلِيَّةِ تَخْمينٍ ».

« لا ، بَلْ نَدْرُسُ الاحْتِمالاتِ وَنَحْتاجُ الأقْرَبَ لِلصَّوابِ ، وَإنَّهُ لاسْتِخْدامٌ عِلْمِيٌّ لِلْخَيالِ ».

وَتَفَحَّصَ هولمز - عَنْ كَثَبٍ - الوَرَقَةَ الَّتي كانَتِ الكَلِماتُ مُلْصَقَةً فيها ، وَقَدْ أمْسَكَ بِها بِالقُرْبِ مِنْ عَيْنَيْهِ ، ثُمَّ ألْقى بِها وَهُوَ يَقولُ :

« أعْتَقِدُ أنَّنا عَلِمْنا مِنْ هَذا الخِطابِ الغَريبِ كُلَّ ما أرَدْنا أنْ نَعْلَمَهُ . سير هنري ، هَلْ وَقَعَ لَكَ شَيْءٌ ذو بالٍ ، مُنْذُ كُنْتَ في لَنْدَن ؟ وهَلْ لاحَظْتَ أنَّ إنْساناً ما يَتَتَبَّعُكَ أوْ يُراقِبُكَ ؟»

« وَلأيِّ شَيْءٍ ، عَلى الأرْضِ ، يَتَتَبَّعُني امْرُؤٌ أوْ يُراقِبُني ؟»

« نَحْنُ واصِلونَ إلى هَذا . هَلْ عِنْدَكَ شَيْءٌ تُقَرِّرُهُ ؟»

« هَذا سَيَتَوَقَّفُ عَلى ما تَراهُ حَقيقاً بِالتَّقْريرِ ».

« أعْتَقِدُ أنَّ أيَّ شَيْءٍ غَيْرِ عادِيٍّ في الحَياةِ اليَوْمِيَّةِ حَقيقٌ بِالإفْضاءِ بِهِ ».

ابْتَسَمَ سير هنري وَقالَ : « أنا لا أعْرِفُ الكَثيرَ عَنِ الحَياةِ في بَلَدِنا حَتّى الآنَ ، فَلَقَدْ قَضَيْتُ كُلَّ وَقْتي - تَقْريباً - بَيْنَ

أمْرِيكا وكَنَدا ، بَيْدَ أنّي آمُلُ ألا يَكونَ فُقْدانُ فَرْدَةِ حِذاءٍ جُزْءاً مِنَ الحَياةِ اليَوْمِيَّةِ هُنا !»

« وَهَلْ ضاعَتْ مِنْكَ إحْدى فَرْدَتَيْ حِذائِكَ ؟»

صاحَ الدُّكْتور مورتيمر : « سَيِّدي العَزيزَ ، سَوْفَ تَجِدُها عِنْدَما تَعودُ إلى الفُنْدُقِ . لِماذا تُزْعِجُ السَّيِّدَ هولمز بِمِثْلِ هٰذه الأمورِ الصَّغيرَةِ ؟»

« لأنَّهُ سَألَني عَنْ أيِّ شَيْءٍ غَيْرِ عادِيٍّ .»

وَهُنا رَفَعَ هولمز صَوْتَهُ : « تَماماً ، مَهْما تَكُنِ المَسْألَةُ تافِهَةً . أتَقولُ إنَّهُ ضاعَتْ مِنْكَ إحْدى فَرْدَتَيْ حِذائِكَ ؟»

« وَلَمْ أجِدْها بِأيِّ سَبيلٍ . وَأسْوَأ ما في الأمْرِ أنَّني ابْتَعْتُهُ اللَّيْلَةَ الماضِيَةَ ، بَلْ وَلَمْ ألْبَسْهُ قَطُّ . فَلَقَدْ قُمْتُ بِعَمَلِيَّةِ تَسَوُّقٍ كَبيرَةٍ ، فَإذا كانَ قَدْ تَعَيَّنَ أنْ أعيشَ في الرّيفِ ، فَإنَّ عَلَيَّ أنْ أرْتَدِيَ مِنَ الثِّيابِ اللائِقَ .»

« مِنَ الغَريبِ وَالضّارِّ أنْ يُسْرَقَ شَيْءٌ . وَإنّي لأعْتَرِفُ أنَّني أشارِكُ الدُّكْتور مورتيمر اعْتِقادَهُ ، أنَّ فَرْدَةَ الحِذاءِ المَفْقودَةَ سَيُعْثَرُ عَلَيْها في الحالِ .»

قالَ سير هنري : « وَالآنَ ، أيُّها السّادَةُ ، إنَّهُ الوَقْتُ الَّذي توفون فيهِ بِوَعْدِكُمْ ، وَتُعْطونَني وَصْفاً كامِلاً لِما كانَ يَجْري .»

وَهٰكَذا أدْخَلَ صَديقُنا العالِمُ الدُّكْتور مورتيمر يَدَهُ في جَيْبِهِ وَأخْرَجَ أوْراقَهُ ، وَراحَ يَرْوي قِصَّتَهُ بِتَمامِها ، كَما رَواها لَنا صَبيحَةَ الأمْسِ ، وَسير هنري باسكرفيل يُصْغي بِاهْتِمامٍ بالِغٍ ، بَيْنَ الفَيْنَةِ وَالأخْرى تَصْدُرُ عَنْهُ كَلِمَةُ دَهْشَةٍ . ثُمَّ قالَ :

« حَسَنٌ ، لَقَدْ طَرَقَ سَمْعي عَنْ قِصَّةِ الكَلْبِ الكَثيرُ مُنْذُ كُنْتُ صَبِيّاً صَغيراً . وَكانَتْ قِصَّةً عَظيمَةً تَناقَلَتْها الأسْرَةُ ، وَلَوْ أنّي لَمْ آخُذْها مَأخَذَ الجِدِّ مِنْ قَبْلُ . أمّا وَقَدْ كانَ مَوْتُ عَمّي ... وَالآنَ ، ها هِيَ ذي حِكايَةُ الخِطابِ في الفُنْدُقِ .»

قالَ الدُّكْتور مورتيمر : « لَعَلَّ ذٰلِكَ يُنْبِئُ عَنْ أنَّ أحَداً ما ، يَعْرِفُ أكْثَرَ مِمّا نَعْرِفُ ، عَمّا يَجْري عَلى المُسْتَنْقَعِ . بَيْدَ أنَّ النُّقْطَةَ الحَقيقِيَّةَ الَّتي يَجِبُ أنْ نُحَدِّدَها ، يا سير هنري ، هِيَ : هَلْ لِزامٌ عَلَيْكَ أنْ تَذْهَبَ إلى أمْلاكِ باسكرفيل ؟»

أجابَ وَقَدْ ثارَ الدَّمُ في عُروقِهِ : « لا شَيْطانَ وَلا إنْسانَ يَحولُ بَيْني وَبَيْنَ زِيارَةِ بَيْتِ عائِلَتي !»

وَكانَ واضحاً أنَّ حَميَّةَ آل باسكرفيل لَمْ تَزَلْ تعيشُ في مُمَثِّلِهِمُ الأوحدِ. ومضى يقولُ: «وفي تِلْكَ الأثْناءِ لَمْ أكَدْ أجِدُ الوَقْتَ الذي يُمَكِّنني مِنَ التَّفكيرِ في كُلِّ ما أخْبَرْتَني بِهِ. إنّي عائدٌ لِتَوّي إلى الفُنْدُقِ، هَلْ لي أنْ أعْرِضَ أنْ تُشَرِّفني أنْتَ والدُّكْتور واطْسُن؛ لِتَناوُلِ الغَداءِ مَعاً؟»

«تَوَقَّعْ وُصولَنا. ألا أُرْسِلُ في طَلَبِ عَرَبَةٍ لَكَ؟»

«شُكْراً لَكَ، أُفَضِّلُ السَّيْرَ عَلى الأقْدامِ.»

«سَنَلْتَقي - إذاً - عَلى الغَداءِ. طابَ صَباحُكَ.»

وَسَمِعْنا وَقْعَ أقْدامِ زائِرَيْنا تَهْبِطُ الدَّرَجَ، ثُمَّ صَريرَ البابِ الأماميِّ وَهُوَ يَنْغَلِقُ. وَما هِيَ إلا لَحْظَةٌ حَتّى تَحَوَّلَ هولمز مِنْ حالِمٍ إلى رَجُلِ عَمَلٍ.

«أسْرِعْ، يا واطْسُن! لا وَقْتَ نُضَيِّعُهُ!»

ثُمَّ هَرْوَلَ مِنَ الغُرْفَةِ، وَعادَ في ثَوانٍ وَعَلَيْهِ مِعْطَفٌ، وَانْطَلَقْنا في السُّلَّمِ نازِلَيْنِ، وَفي شارِعِ بيكر هارِعَيْنِ، وَلا يَزالُ قُدّامَنا مورتيمر وَباسكرفيل عَلى مَبْعَدَةِ مِئَتَيْ مِتْرٍ. وَإذْ حَرَصْنا عَلى أنْ نَكونَ خَلْفَهُما؛ فَقَدِ اقْتَفَيْنا أثَرَهُما في شارِعِ

أكسفورد، وَمِنْ ثَمَّ إلى شارِعِ ريجنت. وَلَمّا تَوَقَّفَ صاحِبانا يتَطَلَّعا إلى المَعْروضاتِ فَعَلَ هولمز مِثْلَهُما. وَما انْقَضى غيرُ هُنَيْهَةٍ حَتّى بَعَثَ بِهَمْسَةِ رِضاً، وَلَمّا تَتَبَّعْتُ اتِّجاهَ عَيْنَيْهِ المُلْهوفَتَيْنِ؛ رَأيْتُ أنَّ عَرَبَةً بِداخِلِها راكِبٌ كانَتْ قَدْ تَوَقَّفَتْ عَلى جانِبِ الشّارِعِ، ثُمَّ شَرَعَتْ تَتَحَرَّكُ ثانِيَةً.

«ها هُوَ ذا رَجُلُنا، يا واطْسُن! هَلُمَّ! سَنُلْقي عَلَيْهِ نَظْرَةً مُتَفَحِّصَةً، إنْ لَمْ نَسْتَطِعْ أكْثَرَ.»

في تِلْكَ اللَّحْظَةِ، رَأيْتُ لِحْيَةً كَثَّةً وَزَوْجاً مِنْ عَيْنَيْنِ حادَّتَيْنِ تَتَحَوَّلانِ نَحْوَنا مِنْ خِلالِ نافِذَةِ العَرَبَةِ، ثُمَّ سَمِعْتُ صَيْحَةً، بَعْدَها انْطَلَقَتِ العَرَبَةُ مُسْرِعَةً إلى شارِعِ ريجنت. أمّا هولمز فَراحَ يَبْحَثُ حَوْلَهُ عَنْ عَرَبَةٍ أخْرى، لَكِنَّنا لَمْ نَجِدْ.

«أهُناكَ سوءُ حَظٍّ أكْثَرُ مِنْ هَذا؟ وَسوءُ إدارَةٍ أيْضاً؟ لا شَكَّ أنَّ باسكرفيل مُطارَدٌ مُنْذُ بَلَغَ لَنْدَن، وَإلا كَيْفَ عَرَفَ بِتِلْكَ السُّرْعَةِ أنَّهُ قَدِ اخْتارَ فُنْدُقَ نورثمبرلاند؟ نَحْنُ نُواجِهُ الآنَ، يا واطْسُن، رَجُلاً حادَّ الذَّكاءِ؛ لَقَدِ اسْتَأْجَرَ عَرَبَةً حَتّى يَسْتَطيعَ التَّحَرُّكَ خَلْفَهُما، وَيَمُرَّ بِهِما دونَ أنْ يَلْحَظاهُ، وَعِلاوَةً عَلى ذَلِكَ، إذا ما اسْتَأْجَرا عَرَبَةً، هُما أيْضاً، يَكونُ قادِراً عَلى

تَتْبَعهما هَلْ تعرَّفْتَ على وَجْهِ ذلكَ الرَّجُلِ ، الَّذي كانَ في العَرَبَةِ ؟»

« لَمْ أَرَ إلا اللِّحْيَةَ السَّوْداءَ ».

« وأنا كذلكَ . وحَدْسي يُحَدِّثُني أنَّ اللِّحْيَةَ زائِفَةٌ ، وَضَعَها لِتُخْفِيَ جُزْءاً مِنْ وجْهِهِ . والآنَ أيْ واطْسُن عَلَيْنا أنْ نُزْجِيَ وَقْتَنا بِمُشاهَدَةِ بَعْضِ المَعْروضاتِ في شارعِ بوند ».

الفَصْلُ الخامِسُ

بادرنا كاتِبُ الفُنْدُقِ قائلاً : « سِير هنري باسكرفيل يَنْتَظِرُكُمْ ».

وعِنْدما وَصَلْنا قِمَّةَ الدَّرَجِ الْتَقَيْنا سِير هنري باسكرفيل نَفْسَهُ ، وقد ارْبَدَّ وَجْهُهُ غَضَباً ، وَهُوَ يُمْسِكُ بِيَدِهِ حِذاءً قديماً يَعْلوهُ التُّرابُ ، وَصاحَ :

« كَأَنَّهُمْ يُحاوِلونَ اسْتِغْفالي في هذا الفُنْدُقِ ! وَلَسَوْفَ يَجِدونَ أَنَّهُمْ قَدْ أَخْطَئُوا الرَّجُلَ ! وَتاللهِ لَئِنْ لَمْ يَجِدِ الخَدَمُ حِذائِيَ المَفْقودَ لَيَكونَنَّ هذا وَبالاً عَلَيْهِمْ ! في مَقْدوري أَنْ أَضْحَكَ مِنْ نُكْتَةٍ كَما يَفْعَلُ غَيْري ، يا سَيِّدُ هولمز ، بَيْدَ أَنَّهُمْ قَدْ تَمادَوْا في هذهِ المَرَّةِ ».

« أَ لا تَزالُ تَتَطَلَّعُ إلى حِذائِكَ ؟»

« بَلى ، يا سَيِّدي . وَأَتَمَنّى أَنْ أَجِدَهُ ».

« لكنّكَ قُلْتَ إنّهُ حِذاءٌ بُنّيٌّ حديثٌ ».

« كانَ كَذلِكَ . وَالآنَ حِذاءٌ أَسْوَدُ قديمٌ ».

« ماذا ؟ تُريدُ أَنْ تَقولَ ... »

« إنّي أَمْتَلِكُ ثَلاثَةَ أَزْواجٍ مِنَ الأَحْذيَةِ : الجَديدُ البُنّيُّ ، وَالقَديمُ الأَسْوَدُ ، وَالزَّوْجُ الذي أَرْتَديهِ الآنَ . وَبِالأَمْسِ أَخَذوا فَرْدَةً مِنَ البُنّيِّ ، وَالآنَ سَرَقوا فَرْدَةً مِنَ الأَسْوَدِ ! وَلا أَسْتَطيعُ تَفْسيراً لِذَلِكَ . إنّهُ لأَشَدُّ الجُنونِ وَأَغْرَبُ شَيْءٍ حَدَثَ لي ! »



قالَ هولمز وَقَدْ أَغْرَقَ في الفِكْرِ : « الأَغْرَبُ ! رُبَّما ».

« وَماذا تَرى أَنْتَ نَفْسُكَ ؟ »

« لا أَزْعُمُ أَنّني فَهِمْتُ قَضِيَّتَكَ حَتّى الآنَ ، فَهِيَ مُعَقَّدَةٌ أَشَدَّ التَّعْقيدِ ، يا سير هنري . بَيْدَ أَنّنا نُمْسِكُ في أَيْدينا بِخَيْطٍ أَوِ اثْنَيْنِ ، وَأَحَدُهُما – حَتْماً – بالِغٌ بِنا الحَقيقَةَ ».

وَتَناوَلْنا غَداءَنا الشَّهِيَّ الَّذي لَمْ نَتَكَلَّمْ خِلالَهُ إلا قَليلاً عَنِ العَمَلِ الَّذي رَبَطَنا جَميعاً .

وَما لَبِثَ هولمز أَنِ اسْتَفْسَرَ مِنْ باسكرفيل عَمّا يَنْتَوي فِعْلَهُ .

« سَأَذْهَبُ إلى قَصْرِ باسكرفيل في نِهايَةِ الأُسْبوعِ ».

« أَعْتَقِدُ أَنَّ هَذا هُوَ القَرارُ الحَكيمُ . هَلْ عَلِمْتَ ، يا دُكْتور مورتيمر ، أَنَّكَ كُنْتَ مُطارَداً مُنْذُ غادَرْتَ داري صَبيحَةَ اليَوْمِ ؟ »

« مُطارَدٌ ! مِمَّنْ ؟ »

« لِسوءِ الحَظِّ لَمْ أَسْتَطِعْ مَعْرِفَتَهُ . هَلْ يوجَدُ في جيرانِكَ بِدارتمور رَجُلٌ لَهُ لِحْيَةٌ سَوْداءُ كَثَّةٌ ؟ »

« لا ، أَقْصِدُ دَعْني أُفَكِّرُ . حَسَنٌ ! نَعَمْ ، باريمور – خادِمُ

سِير تشارلز ، لَهُ لِحْيَةٌ كَثَّةٌ !»

« ها ! وَأَيْنَ هُوَ ؟»

« في حِراسَةِ الأَرْضِ .»

سَأَلَ باسكرڤيل : « مَنْ باريمور هٰذا ؟»

« عائِلَتُهُ ، كانَتْ وَلا تَزالُ ، في خِدْمَةِ آلِ باسكرڤيل سَنَواتٍ وَسَنَواتٍ ، وَهُوَ وَزَوْجَتُهُ خَليقانِ بِكُلِّ ثِقَةٍ .»

سَأَلَهُ هولمز : « هَلِ انْتَفَعَ باريمور – بِأَيِّ سَبيلٍ – مِنْ مَوْتِ سِير تشارلز ؟»

« تَسَلَّمَ هُوَ وَزَوْجَتُهُ ، كُلُّ واحِدٍ مِنْهُما خَمْسَمائَةِ جُنَيْهٍ .»

« أَحَقًّا ما تَقولُ ؟ هَلْ تَلَقّى أَحَدٌ آخَرُ شَيْئًا ؟»

« تَمَّ التَّبَرُّعُ كَثيرًا بِمَبالِغَ صَغيرَةٍ ، أَمّا الباقي فَذَهَبَ إِلى سِير هنري .»

« كَمْ ؟»

« سَبْعُمِئَةٍ وَأَرْبَعونَ أَلْفَ جُنَيْهٍ .»

رَفَعَ هولمز حاجِبَيْهِ دَهْشَةً وَقالَ : « لَمْ يَدُرْ بِذِهْني أَنَّ مِثْلَ

هٰذا المَبْلَغَ الضَّخْمَ كانَ مَوْجودًا . وَأَيُّ امْرِئٍ قَدْ يُجازِفُ مُجازَفَةً خَطيرَةً لِأَجْلِ الحُصولِ عَلى ذٰلِكَ المَبْلَغِ ! سُؤالٌ آخَرُ ، يا دُكْتور مورتيمر ، لِنَفْتَرِضْ أَنَّ مَكْروهًا نَزَلَ بِصَديقِنا الشّابِّ هُنا ، مَنْ يَكونُ صاحِبَ هٰذِهِ الأَرْضِ ؟»

« لَمْ يَكُنْ شَقيقُ سِير تشارلز الأَصْغَرُ الَّذي قَضى نَحْبَهُ في أَمْريكا الوُسْطى مُتَزَوِّجًا ؛ وَلِذا تَكونُ تِلْكَ الأَرْضُ لِابْنِ أَخيهِ ، وَهُوَ قِسّيسٌ يَعيشُ في شَمالِ إِنْجِلْترا ، وَيُدْعى جيمس ديسموند ، وَقَدْ أَثْقَلَتْ ظَهْرَهُ السُّنونَ ، وَيَعيشُ حَياةَ الطُّهْرِ وَالعَفافِ وَالزُّهْدِ . وَإِنّي لَأَذْكُرُ أَنَّهُ عِنْدَما رَغِبَ سِير تشارلز في إِعْطائِهِ بَعْضَ المالِ قَبْلَ أَنْ يَموتَ ؛ أَبى جيمس ديسموند قَبولَهُ ؛ فَلا مُبَرِّرَ لَنا لِلشَّكِّ فيهِ .»

« حَسَنٌ . الآنَ ، يا سِر هنري ، عِنْدَما تَخْرُجُ إِلى دارتمور لا تَذْهَبْ وَحْدَكَ ؛ الدُّكْتور مورتيمر رَجُلٌ مَشْغولٌ دائِمًا ، وَدارُهُ في غريمپين عَلى مَسيرَةِ كيلومِتْراتٍ مِنْ دارِكَ ؛ فَعَلَيْكَ أَنْ تَصْطَحِبَ رَجُلًا هُوَ مَحَلُّ ثِقَتِكَ ، عَلى أَنْ يَكونَ دَوْمًا بِجانِبِكَ .»

« هَلّا أَتَيْتَ ، أَنْتَ ، يا سَيِّدُ هولمز ؟»

« يُؤْسِفُني أنَّ ذَلِكَ غَيْرُ مُمْكِنٍ !»

« وَمَنِ الَّذي توصي بِهِ إذاً ؟»

« إذا وافَقَ صَديقي عَلى الذَّهابِ مَعَكَ فَلَيْسَ أحَدٌ خَيْراً مِنْهُ.»

وَقَبْلَ أنْ أحيرَ جَواباً ، أمْسَكَ هنري باسكرفيل بِيَدي ، وَطَفِقَ يَهُزُّها بِحَرارَةٍ وَهُوَ يَقولُ : « إنَّهُ عَطْفٌ مِنْكَ سابِغٌ ، يا دُكْتور واطْسُن !»

وَلأنَّ أيَّ وَعْدٍ بِمُغامَرَةٍ يُبْهِجُني دائِماً ؛ فَقَدْ قُلْتُ لَهُ : « سَأصْحَبُكَ بِكُلِّ سُرورٍ .»

قالَ هولمز : « أرْجو أنْ تُبْلِغَني أوَّلاً بِأوَّلَ بِما يَطْرأ . وَعِنْدَما تَأتي اللَّحْظَةُ المُناسِبَةُ سَوْفَ أرْشِدُكَ إلى ما يَنْبَغي عَمَلُهُ . وَفي تِلْكَ الأثْناءِ تَسْتَطيعانِ رُكوبَ قِطارِ السَّاعَةِ العاشِرَةِ وَالنِّصْفِ ، مِنْ مَحَطَّةِ بادينغتون ، صَباحَ السَّبْتِ .»

لَمْ نَكَدْ نَهُمُّ بِالخُروجِ ؛ حَتّى نَدَّتْ عَنْ باسكرفيل صَيْحَةُ اسْتِغْرابٍ. وَما أسْرَعَ ما هُرِعَ إلى رُكْنٍ في الغُرْفَةِ ، وَالْتَقَطَ فَرْدَةَ حِذاءٍ بُنِّيَّةً مِنْ تَحْتِ أحَدِ المَناضِدِ ، وَصاحَ : « حِذائي المَفْقودُ !»

وَعَلَّقَ الدُّكْتور مورتيمر قائِلاً : « أمْرٌ غَريبٌ ! لَقَدْ فَتَّشْتُ الغُرْفَةَ بِعِنايَةٍ فائِقَةٍ قَبْلَ تَناوُلِنا طَعامَ الغَداءِ .»

قالَ باسكرفيل : « وَأنا كَذَلِكَ ، فَتَّشْتُ كُلَّ بوصَةٍ فيها .»

« لَمْ يَكُنْ بِالغُرْفَةِ أيُّ حِذاءٍ حينَئِذٍ .»

لَمْ نَجِدْ أيَّ تَفْسيرٍ لِهَذا ، وَأضيفَتْ حادِثَةٌ أخْرى إلى تِلْكَ السِّلْسِلَةِ مِنَ الألْغازِ ، الَّتي أخَذَ بَعْضُها بِرِقابِ بَعْضٍ في اليَوْمَيْنِ الأخيرَيْنِ مِنْ وُصولِ الخِطابِ المَطْبوعِ : فَمِنَ الرَّجُلِ ذي اللِّحْيَةِ الكَثَّةِ السَّوْداءِ الَّذي كانَ في العَرَبَةِ ، إلى فَقْدِ فَرْدَةِ الحِذاءِ الأسْوَدِ القَديمِ ، وَالآنَ عَوْدَةِ فَرْدَةِ الحِذاءِ البُنِّيَّةِ الجَديدَةِ .

وَإنّا لَعائِدونَ إلى شارِعِ بيكر إذا بِهولمز يَلْتَفِتُ إلَيَّ قائِلاً : « إنِّي مُحَذِّرُكَ ، يا واطْسُن ، إنَّنا نُواجِهُ الآنَ عَدُوّاً يَجِبُ مُحارَبَتُهُ. لَقَدْ هُزِمْتُ في لَنْدَن ؛ لِذا فَإنّي أنْشُدُ لَكَ حَظّاً أفْضَلَ في دِرْتمور. لَكِنَّني لا يُسْعِدُني إرْسالُكَ ؛ فَإنَّها مُهِمَّةٌ سَيِّئَةٌ ، يا وطْسُن ، سَيِّئَةٌ وَخَطِرَةٌ ! وَكُلَّما رَأيْتُ المَزيدَ مِنْها ازْدَدْتُ لَها بُغْضاً . وَلَكِنَّني سَوْفَ يَسُرُّني لِلْغايَةِ أنْ أراكَ عائِداً سالِماً آمِناً في شارِعِ بيكر مَرَّةً أخْرى .»

الفَصْلُ السَّادِسُ

اِصْطَحَبَني شِرْلوك هولمز بِالسَّيّارَةِ إلى مَحَطَّةِ بادينغتون ، وَقالَ : « أَوَدُّ أَنْ تَسْرُدَ عَلَيَّ ، بِما يَتَسَنّى لَكَ مِنْ إِسْهابٍ ، أَيَّ أَمْرٍ يَتَعَلَّقُ بِهذِهِ المَسْأَلَةِ ، مَهْما يَكُنْ غَيْرَ مُباشِرٍ . أَيَّةَ تَفْصيلاتٍ عَنْ مَوْتِ سير تشارلز ، أَوْ عَمَّنْ سَيُحيطونَ بِسير هنري . ثَمَّةَ أُسْرَتانِ تَعيشانِ في الأَكْواخِ على المُسْتَنْقَعِ ، وَهُناكَ صَديقُنا الدُّكْتور مورتيمر الَّذي أَرى فيهِ الأَمانَةَ الَّتي لا تَشوبُها شائِبَةٌ ، وَهُناكَ زَوْجَتُهُ الَّتي لا نَعْرِفُ عَنْها شَيْئًا ، وَذلِكَ العالِمُ الطَّبيعِيُّ ستيبلتن وَأُخْتُهُ الَّتي يُقالُ عَنْها إِنَّها مِثالٌ للشّابَّةِ الفاتِنَةِ . أَنْتَ مُسَلَّحٌ على ما أَعْتَقِدُ . اِحْتَفِظْ بِسِلاحِكَ لَيْلاً وَنَهارًا بِجانِبِكَ ، وَلا تَتَخَلَّ عَنْ يَقَظَتِكَ إِطْلاقًا ».

وَكانَ صَديقانا يَنْتَظِرانِنا عَلى المَحَطَّةِ .

« هَلْ وَجَدْتَ فَرْدَةَ الحِذاءِ الأُخْرى ؟ »

« لا . لَقَدْ ضاعَتْ إلى الأَبَدِ . »

« أَحَقًا ؟ هٰذا أَمْرٌ شائِقٌ . وَالآنَ ، لا تَتَجَوَّلْ وَحْدَكَ ، وَتَذَكَّرْ إِحْدى الجُمَلِ في تِلْكَ القِصَّةِ القَديمَةِ ، الَّتي تَلاها عَلَيْنا الدُّكْتور مورتيمر : لا تَعْبُرِ المُسْتَنْقَعَ في ساعاتِ اللَّيْلِ ، حينَ تَكونُ قُوى الشَّرِّ في عُنْفُوانِها . »

كانَتِ الرِّحْلَةُ سَريعَةً وَجَميلَةً ، وَعِنْدَما بَلَغَ بِنا القِطارُ إِحْدى المَحَطّاتِ الرّيفِيَّةِ الصَّغيرَةِ ، نَزَلْنا مِنْهُ ، وَكانَ يَنْتَظِرُنا خارِجَ المَحَطَّةِ عَرَبَةٌ بِحِصانَيْنِ . وَسُرْعانَ ما أَخَذْنا نَقْطَعُ الطَّريقَ العَريضَ الأَبْيَضَ ، وَكانَتِ الحُقولُ وَالأَشْجارُ الخَضْراءُ تُطْوى بِجِوارِنا . وَمِنْ وَرائِها قَبَعَ القَوْسُ الطَّويلُ لِلْمُسْتَنْقَعِ - صاعِدًا حالِكًا لِيُلاطِحَ سَماءَ الغُروبِ . وَتَحَوَّلَتِ العَرَبَةُ عَنِ الطَّريقِ الرَّئيسِيِّ ، ثُمَّ اسْتَدَرْنا عَلى المَعْبَرِ .

صاحَ الدُّكْتور مورتيمر : « أَهْلاً ! ما هٰذا ؟ »

اِرْتَفَعَ أَمامَ أَعْيُنِنا تَلٌّ مُنْحَدِرٌ يُكَوِّنُ جُزْءًا مِنْ جَوانِبِ المُسْتَنْقَعِ ، وَعَلى قِمَّتِهِ وَقَفَ جُنْدِيٌّ بِلا حَراكٍ وَكَأَنَّهُ تِمْثالٌ ، مُمْتَطِيًا صَهْوَةَ جَوادِهِ ، وَقَدْ أَمْسَكَ بِيَدِهِ بُنْدُقِيَّةً في وَضْعِ

الاسْتِعْدادِ . وَكانَ يَرْقُبُ الطَّرِيقَ الَّذي سافَرْنا فيهِ .

والْتَفَتَ سائِقُ العَرَبَةِ في مَقْعَدِهِ قائِلاً :

« هَرَبَ سَجِينٌ مُنْذُ ثَلاثَةِ أَيّامٍ مِنْ بِرِنْستاون ، وَلا يَزالُ طَلِيقاً حَتّى الآنَ ، وَيَقومُ حُرّاسُ السِّجْنِ بِتَفْتِيشِ كُلِّ رُكْنٍ ، لٰكِنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفوا مَكانَهُ حَتّى هٰذِهِ اللَّحْظَةِ . القَوْمُ هُنا لا يُحِبّونَ أَمْثالَ هٰذِهِ الأُمورِ وَلا يُحَبِّذونَها عَلى الإِطْلاقِ . وَكَما تَرَيانِ ، لَيْسَ ذٰلِكَ السَّجِينُ سَجِيناً عادِيّاً . إِنَّ ذٰلِكَ الرَّجُلَ عَلى اسْتِعْدادٍ لارْتِكابِ أَيَّةِ جَرِيمَةٍ . إِنَّهُ سِيلْدِن الَّذي ارْتَكَبَ جَرِيمَةَ قَتْلِ نوتِنْغ هِل . »

تَذَكَّرْتُ القَضِيَّةَ جَيِّداً بِسَبَبِ قَسْوَةِ ذٰلِكَ القاتِلِ ، الَّذي ظَنَّ النّاسُ أَنَّهُ رَجُلٌ بِعَقْلِهِ مَسٌّ ؛ لِكَوْنِ أَفْعالِهِ غايَةً في الشَّناعَةِ . وَظَهَرَتْ أَمامَنا مِساحَةُ المُسْتَنْقَعِ المَكْشوفَةُ ، وَمِنْها هَبَّتْ عَلَيْنا رِيحٌ بارِدَةٌ . وَكانَ في مَكانٍ ما مُرْتَفِعٍ ذٰلِكَ الرَّجُلُ مُخْتَبِئاً كَالوَحْشِ الضّاري ، بِقَلْبِهِ المَليءِ بِالبَغْضاءِ وَالحِقْدِ عَلى الدُّنْيا بِأَسْرِها . وَإِذْ كانَ اللَّيْلُ يُرْخي سُدولَهُ عَلى المَكانِ ، ظَلَّ هِري باسكرفِيل صامِتاً ، ثُمَّ أَخَذَ يُحْكِمُ مِعْطَفَهُ حَوْلَ بَدَنِهِ وَتَرَكْنا تِلْكَ البُقْعَةَ النَّدِيَّةَ خَلْفَنا ، وَبَدا الطَّرِيقُ أَمامَنا أَكْثَرَ اسْتِيحاشاً ، صاعِداً عَلى

المُنْحَدَراتِ المَكْشوفَةِ المُبَعْثَرَةِ عَلَيْها صُخورٌ هائِلَةٌ . وَكُنّا نَمُرُّ بَيْنَ الفَيْنَةِ وَالأُخْرى بِكوخٍ مُنْعَزِلٍ مَبْنِيٍّ وَمَسْقوفٍ بِالحِجارَةِ . وَما لَبِثْنا أَنْ تَطَلَّعْنا مِنْ تَحْتِنا إِلى وادٍ مُبَعْثَرَةٍ عَلَيْهِ ، هُوَ أَيْضاً ، شُجَيْراتٌ قَدِ انْحَنَتْ وَالْتَوَتْ بِفِعْلِ الرِّيحِ . وَارْتَفَعَ فَوْقَ تِلْكَ الشُّجَيْراتِ بُرْجانِ ، حَيْثُ أَشارَ إِلَيْهِما السّائِقُ بِسَوْطِهِ ، وَهُوَ يَقولُ : « قَصْرُ باسكرفِيل ».

وَبَعْدَ بِضْعِ دَقائِقَ مَرَرْنا بِالبَوّاباتِ ، وَصَعِدْنا في شارِعٍ عَريضٍ ، حَيْثُ مَرَّتِ العَجَلاتُ الهُوَيْنا عَلى أَوْراقِ الشَّجَرِ السّاقِطَةِ ، وَتَلاقَتْ أَغْصانُ الأَشْجارِ فَوْقَ رُءوسِنا . وَنَظَرَ هِري باسكرفِيل حَوْلَهُ ، وَقالَ :

« لا عَجَبَ أَنَّ عَمّي قَدِ انْتابَهُ هاجِسٌ بِأَنَّ مَكْروهاً سَيَنْزِلُ بِهِ في مَكانٍ مِثْلِ هٰذا ، يُصيبُ أَيَّ إِنْسانٍ بِالرُّعْبِ !»

وَما لَبِثَ الشّارِعُ المُفْضي إِلى القَصْرِ أَنِ انْفَتَحَ ؛ فَاسْتَطَعْتُ أَنْ أَرى في الضَّوْءِ الباهِتِ مَبْنًى مُظْلِماً ، كانَتِ الواجِهَةُ الأَمامِيَّةُ كُلُّها مُغَطّاةً بِاللَّبْلابِ ، وَمِنَ الكُتْلَةِ الوُسْطى ارْتَفَعَ البُرْجانِ ، وَلَمَعَ ضَوْءٌ ضَعِيفٌ مِنْ خِلالِ بَعْضِ النَّوافِذِ ، وَمِنْ إِحْدى

المَداخِنِ صَعِدَ خطٌّ أسْوَدُ مِنَ الدُّخانِ .

« مَرْحى ، يا سِير هنري ! مَرْحَباً بِكَ في قَصْرِ باسكرفيل ! »

وَمِنْ وَراءِ ظِلِّ البابِ تَقَدَّمَ رَجُلٌ طَوِيلٌ ، وَقَدْ وَقَفَتْ خَلْفَهُ امْرَأَةٌ في ضَوْءِ القاعَةِ الأَصْفَرِ ، وَحَمل كِلاهُما عَنّا حَقائِبَنا .

قالَ الدُّكْتور مورتيمر : « عَلَيَّ أَنْ أَذْهَبَ إِلى داري فَوْراً ، فَقَدْ أَجِدُ مُهِمَّةً تَنْتَظِرُني ! طابَ مساؤُكُما . لا تَتَرَدَّدا في طَلَبي لَيْلاً أَوْ نَهاراً ، إذا ما دَعَتِ الضَّرورَةُ لِذَلِكَ ».

وَتَلاشَتْ قَرْقَعَةُ العَجَلاتِ رُوَيْداً رُوَيْداً في المَمْشى ، وَأُغْلِقَ البابُ مِنْ خَلْفِنا بِعُنْفٍ ، وَ وَقَفَ باريمور أَمامَنا ، بِهُدوءِ الخادِمِ الَّذي دُرِّبَ عَلى ذَلِكَ التَّدْريبَ الأَمْثَلَ وَهُوَ رَجُلٌ وَسيمٌ فارِعُ الطَّولِ ، وَجْهُهُ مُمْتَقِعٌ ، وَلَهُ لِحْيَةٌ سَوْداءُ مُنَسَّقَةٌ .

« أَتُريدانِ العَشاءَ الآنَ ، يا سَيِّدي ؟ سَتَجِدانِ الماءَ السّاخِنَ في غُرْفَتَيْ نَوْمِكُما .»

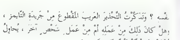
وَلَمْ نُكْثِرْ مِنَ الحَديثِ وَنَحْنُ نَتَناوَلُ الطَّعامَ في القاعَةِ الطَّويلَةِ الطَّيلَة ، في دائِرَةِ الضَّوْءِ الصَّغيرَةِ الَّتي نَعَتْها المِصْباحُ . وَكانَ فَوْقَ رُؤوسِنا أَعْمِدَةٌ سَوْداءُ وَسَقْفٌ عالٍ قَدْ سَوَّدَهُ الدُّخانُ وَكانَ

خط ما صفٌّ طَويلٌ مِنَ الصُّوَرِ — صُوَرِ الأَعْضاءِ الأَوائِلِ لآلِ باسكرفيل ، وَلَمْ نَشْعُرْ بِالرّاحَةِ لِصُحْبَتِها الصّامِتَةِ وَصَعِدْنا إِلى غُرَفِ نَوْمِنا مُبَكِّرَيْنِ ، آمِلَيْنِ أَنْ تَكونَ الأُمورُ أَكْثَرَ إِبْهاجاً في صَباحِ الغَدِ .

وَبِالرَّغْمِ مِنْ كَوْني مُتْعَباً ، إِلا أَنَّني لَمْ أَسْتَطِعِ النَّوْمَ وَعَلى فَتَراتٍ مُتَباعِدَةٍ كانَتِ السّاعَةُ تَدُقُّ ، وَما عَدا ذَلِكَ خَيَّمَ السُّكونُ عَلى البَيْتِ القَديمِ وَفَجْأَةً سَمِعْتُ في مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ نَحيبَ امْرَأَةٍ ، وَما لَبِثَ ذَلِكَ الصَّوْتُ أَنْ تَوَقَّفَ فَجْأَةً ، فَقَعَدْتُ في فِراشي وَرُحْتُ أُصْغي وَتَرَقَّبْتُ نِصْفَ السّاعَةِ وَلَكِنْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ صَوْتٌ سِوى دَقّاتِ السّاعَةِ ، وَحَفيفِ نَباتِ اللَّبْلابِ عَلى الجُدْرانِ في ذَلِكَ القَصْرِ .

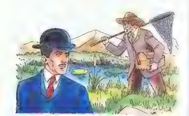
الفَصْلُ السّابِعُ

أزالَ جَمالُ الصَّباحِ مِنْ عُقولِنا بَعْضاً مِنْ آثارِ الظُّلْمَةِ والكآبَةِ، الَّتي رانَتْ عَلَيْها مِنْ قَصْرِ باسكرفيل. لكِنْ تَصادَفَ أنْ قابَلْتُ بَعْدَ فَراغِنا مِنْ تَناوُلِ طَعامِ الإفْطارِ السَّيِّدَةَ باريمور في المَمَرِّ، وَالشَّمْسُ تَتَأَلَّقُ مُباشَرَةً على وَجْهِها. وَهِيَ امْرَأَةٌ ضَخْمَةُ الجُثَّةِ، ذاتُ وَجْهٍ مُتَجَهِّمٍ، وكانَتْ عَيْناها مُحْمَرَّتَيْنِ. وَأَلْقَتْ عَلَيَّ بِنَظْرَةٍ عَجْلى مِنْ خِلالِ جُفونٍ مُتَوَرِّمَةٍ. إِنَّها هِيَ – إذاً – الَّتي كانَتْ تَبْكي لَيْلاً! فَإِذا كانَتْ قَدْ فَعَلَتْ ذلِكَ فَإِنَّ زَوْجَها بِذلِكَ عَليمٌ، وَقَبْلَ ذلِكَ كانَ السِّرُّ يَتَجَمَّعُ حَوْلَ ذلِكَ الرَّجُلِ الشّاحِبِ الوَجْهِ، الأَسْوَدِ اللِّحْيَةِ، الَّذي لَمْ نَأْخُذْ مِنْهُ إلا قِصَّتَهُ عَنْ مَوْتِ سير تشارلز. أَكانَ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ يَكونَ هُوَ، رَغْمَ ذلِكَ، باريمور لَدى رَأَيْناهُ في العَرَبَةِ في شارِعِ ريجنت؟ رُبَّما كانَتِ اللِّحْيَةُ لِحْيَتَهُ، وَلَعَلَّ باريمور كانَ في لَنْدَن. ماذا إذاً؟ أَكانَ يَعْمَلُ لِمَصْلَحَةِ أُناسٍ آخَرينَ، أَمْ كانَ يَعْمَلُ لِحِسابِ



نَفْسِهِ؟ وَتَذَكَّرْتُ التَّحْذيرَ الغَريبَ المَقْطوعَ مِنْ جَريدَةِ التّايمز، هَلْ كانَ ذلِكَ مِنْ عَمَلِهِ أَمْ مِنْ عَمَلِ شَخْصٍ آخَرَ، يُحاوِلُ أَنْ يَقْلِبَ خُطَّتَهُ رَأْساً عَلى عَقِبٍ؟

كُنْتُ أَتَمَشّى عَلى جَوانِبِ المُسْتَنْقَعِ تُجاهَ غريمبين، حينَ قَطَعَ أَفْكاري بَغْتَةً وَقْعُ أَقْدامٍ تَعْدو مِنْ خَلْفي، وَصَوْتٌ يُناديني؛ فَاسْتَدَرْتُ، وَلِدَهْشَتي وَجَدْتُهُ شَخْصاً غَريباً عَنّي. كانَ رَجُلاً ضَئيلاً، أَشْقَرَ الشَّعْرِ، وَشَفَتاهُ رَقيقَتانِ، وَفَكُّهُ مُحَدَّدٌ؛ وَهُوَ بَيْنَ الثَّلاثينَ وَالأَرْبَعينَ مِنْ عُمْرِهِ. وَكانَ يَرْتَدي حُلَّةً رَمادِيَّةً، وَيَضَعُ عَلى رَأْسِهِ قُبَّعَةً مِنَ القَشِّ، وَقَدْ تَعَلَّقَ بِكَتِفِهِ صُنْدوقٌ مِنَ الصَّفيحِ، كَما حَمَلَ مَعَهُ شَبَكَةً خَضْراءَ لِصَيْدِ الحَشَراتِ.



قالَ : « أَسْتَميحُكَ عُذْراً ، يا دُكْتور واطْسُن ! نَحْنُ هُنا علَى المُسْتَنْقَعِ أناسٌ بُسَطاءُ ، وَلا نَنْتَظِرُ المُقَدِّماتِ الرَّسْمِيَّةَ ، وَلَعلَّكَ سَمِعْتَ باسْمي مِنْ مورتيمر . أنا ستيبلتن ، مِنْ ميريبيت هاوس . »

قُلْتُ : « شَبَكْتَني وَصَنْدوقُ أَنْبابي بِذَلِكَ ، لأَنَّني عَلِمْتُ أَنَّكَ أَحَدُ الجَمّاعينَ . وَلَكِنْ ، كَيْفَ عَرَفْتَني ؟ »

قالَ : « مورتيمر أَشارَ إِلَيْكَ وَأَنْتَ تَمُرُّ ، وَحَيْثُ إِنَّنا عَلى الطَّريقِ نَفْسِهِ فَكَّرْتُ أَنْ أَلْحَقَ بِكَ ، وَأُعَرِّفَكَ بِنَفْسي . وَإِنّي لآمُلُ أَلا يَكونَ سير هنري في أَسْوَإِ حالاتِهِ بَعْدَ قِيامِهِ بِالرِّحْلَةِ ! وَأَنْتَ تَعْرِفُ بِطَبيعَةِ الحالِ قِصَّةَ الكَلْبِ الشَّيْطانِيِّ ، الَّذي دَأَبَ عَلى إِزْعاجِ أُسْرَتِهِ وَإِنَّهُ لأَمْرٌ بَعيدُ التَّصْديقِ ، وَلَكِنْ أَهْلَ هَذا الرِّيفِ يُصَدِّقونَ هَذِهِ القِصَّةَ ، وَإِنَّ أَيَّ عَدَدٍ مِنْهُمْ سَوْفَ يُقْسِمُ إِنَّهُمْ شاهَدوا ذَلِكَ المَخْلوقَ! وَقَدْ أَثَّرَتِ القِصَّةُ في سير تشارلز تَأْثيراً سَيِّئاً ، وَلَيْسَ عِنْدي أَدْنى رَيْبٍ في أَنَّها هِيَ الَّتي أَفْضَتْ إِلى وَفاتِهِ وَأوقِنُ أَنَّهُ سَمِعَ حَقيقَةً شَيْئاً مِنْ هَذا القَبيلِ ، في اللَّيْلَةِ الماضِيَةِ ، عَلى مَمَرِّ أَشْجارِ السَّرْوِ . لَقَدْ كُنْتُ كَلِفاً بِالرَّجُلِ ، وَأَعْلَمُ أَنَّ قَلْبَهُ كانَ ضَعيفاً . »

« وَكَيْفَ تَأَتّى لَكَ عِلْمُ ذَلِكَ ؟ »

« أَبْلَغَنيهِ سير مورتيمر . »

« تَعْتَقِدُ أَنْتَ ، إِذاً ، أَنَّ كَلْباً ما كانَ يَعْدو خَلْفَ سير شارلز ، وَأَنَّهُ ماتَ رُعْباً مِنْهُ . »

« أَ عِنْدَكَ إِيضاحٌ أَفْضَلُ مِنْ هَذا ؟ »

« لَمْ أَسْتَقِرَّ بَعْدُ عَلى رَأْيٍ . »

« وَهَلِ اسْتَقَرَّ السَّيِّدُ شِرْلوك هولمز عَلى رَأْيٍ ؟ »

هذِهِ الكَلِماتُ خَطَفَتْ أَنْفاسي لَحْظَةً . لكِنَّ نَظْرَةً عَلى وَجْهِ صَديقِيَ الهادِئِ بَيَّنَتْ لي أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ دَهِشاً .

أَضافَ : « غَيْرُ مُجْدٍ لَنا أَنْ نَتَجاهَلَ مَعْرِفَتَكَ ، يا دُكْتور واطْسُن . فَإِذا كُنْتَ هُنا فَمَعْنى ذَلِكَ أَنَّ السَّيِّدَ شِرْلوك هولمز مَعْنِيٌّ بِالمَسْأَلَةِ . وَأَنا مُتَطَلِّعٌ إِلى مَعْرِفَةِ رَأْيِهِ وَالإِجْراءِ الَّذي سَيَتَّخِذُهُ . »

« يُؤْسِفُني أَنَّني لا أَسْتَطيعُ الإِجابَةَ عَنْ هَذا السُّؤالِ ! »

« لَكَ الحَقُّ كُلُّهُ في أَنْ تَكونَ حَذِراً . »

وَكُنّا قَدْ بَلَغْنا مَكاناً حَيْثُ تَفَرَّعَ مَمَرٌّ ضَيِّقٌ مُعْشَوْشِبٌ مِنَ الطَّريقِ العامِّ ، وَانْحَنى بَعيداً عَبْرَ المُسْتَنْقَعِ .

« هَذا المَمَرُّ يُؤَدّي إلى ميريبيت هاوس . هَلّا فَرَغْتَ ساعَةً حَتّى أَسْعَدَ بِتَقْديمِكَ لأُخْتي ؟ إنَّ المُسْتَنْقَعَ مَكانٌ رائِعٌ . هَلْ رَأَيْتَ تِلْكَ الأَماكِنَ الخَضْراءَ النَّضِرَةَ ؟ هُناكَ يَقَعُ مُسْتَنْقَعُ جريمبين . إنَّ خُطْوَةً خاطِئَةً تَعْني المَوْتَ المُحَقَّقَ لِلإنْسانِ وَالحَيَوانِ ، وَأَمْسِ فَقَطْ شاهَدْتُ أَحَدَ الجِيادِ بِالمُسْتَنْقَعِ يَتَجَوَّلُ فيهِ، وَلَمْ يَسْتَطِعِ الخُروجَ فَابْتَلَعَهُ المُسْتَنْقَعُ . وَبَعْدَ هَذِهِ الأَمْطارِ الخَريفِيَّةِ يَصيرُ المَكانُ عَريقاً ، بَيْدَ أَنّي أَسْتَطيعُ أَنْ أَجِدَ طَريقي في قَلْبِ ذَلِكَ المَكانِ ، وَأَنْ أَعودَ سالِماً . وَتاللهِ ثَمَّةَ جِيادٌ أُخْرى غَيْرُهُ ».

وَكانَ ثَمَّ شَيْءٌ بُنِّيُّ اللَّوْنِ يَدورُ وَيُجاهِدُ في وَسَطِ الأَرْضِ الخَضْراءِ ، ثُمَّ ارْتَفَعَتْ رَقَبَةٌ طَويلَةٌ مُسْتَقيمَةٌ ، وَانْبَعَثَتْ صَرْخَةٌ مِنَ المُسْتَنْقَعِ .

« لَقَدْ ذَهَبَ ! ابْتَلَعَهُ المُسْتَنْقَعُ ! لَقَدِ اعْتادَتِ الجِيادُ المُضِيَّ إلَيْهِ في الطَّقْسِ الجافِّ ، لَكِنَّهُ ، بَعْدَ المَطَرِ ، يَجُرُّها وَيَجْرِفُها .

إنَّهُ مَكانٌ مُريعٌ – مُسْتَنْقَعُ جريمبين العَظيمُ !»

« لَكِنَّكَ قُلْتَ إنَّكَ تَسْتَطيعُ عُبورَهُ !»

« أَجَلْ ، هُناكَ مَمَرٌّ أَوِ اثْنانِ يَسْتَطيعُ الرَّجُلُ الماهِرُ أَنْ يَجْتازَهُما، وَقَدِ اكْتَشَفْتُهُما أَنا ».

« وَلَكِنْ لِمَ تَرْغَبُ في أَنْ تَسْلُكَ مِثْلَ هَذا المَكانِ ؟»

« هَلْ تَرى هَذِهِ التِّلالَ ؟ إنَّها جُزُرٌ حَقيقِيَّةٌ قَطَعَها المُسْتَنْقَعُ مِنْ كُلِّ جانِبٍ ، حَيْثُ توجَدُ النَّباتاتُ وَالحَشَراتُ النّادِرَةُ إذا اسْتَطَعْتَ الوُصولَ إلَيْها ».

وَفي تِلْكَ اللَّحْظَةِ بِعَيْنِها اجْتاحَ المُسْتَنْقَعَ كُلَّهُ صَيْحَةٌ طَويلَةٌ خَفيضَةٌ مَلأَتِ الجَوَّ ، لَكِنَّهُ كانَ مِنَ المُتَعَذِّرِ الحُكْمُ مِنْ أَيْنَ جاءَتْ، ثُمَّ ارْتَفَعَتْ حَتّى صارَتْ زَئيراً عَميقاً ، ثُمَّ راحَتْ تَنْخَفِضُ بِالتَّدْريجِ . وَنَظَرَ إلَيَّ ستيبلتن وَعَلى وَجْهِهِ تَعْبيرٌ غَريبٌ .

سَأَلْتُهُ : « ما هَذا ؟»

« يَقولُ القَرَوِيّونَ إنَّهُ كَلْبُ آلِ باسكرفيل ؛ لَقَدْ سَمِعْتُ صَوْتَهُ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ مِنْ قَبْلُ ، لَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِهَذا الصَّخَبِ ».

« إنَّكَ رجُلٌ متعلِّمٌ ؛ فأنَّى لكَ أنْ تؤْمنَ بمثْلِ ذلكَ الهراء ؟»

« ذلِكَ المُسْتَنْقَعُ يُحْدثُ أحياناً أصواتاً عجيبة ، وهِيَ أصْواتُ هُبوطِ الطَّمْيِ ، أوْ صُعودِ الماءِ ، أوْ غيرِ ذاكَ . »

« لا ، لا ، هذا صَوْتُ كائنٍ حيٍّ !»

« حَسَنٌ ، لَعَلَّهُ كَذَلِكَ . هَلْ سَمِعْتَ يَوْماً صَيْحَةَ طائِرِ الواقِ ؟ إنَّهُ طائِرٌ نادِرُ الوُجودِ ، وقدِ انْقرضَ الآنَ فِعْلاً مِنْ إنْجلترا ، بيْدَ أنَّهُ لا شيْءَ مُسْتحيلٌ على المُسْتَنْقَعِ . ولَنْ يُدْهِشَني أنْ يكونَ ذلكَ الذي سَمِعْناهُ زَعْقَةَ آخِرِ هؤلاءِ الطُّيورِ !»

« إنَّهُ أغْرَبُ صَوْتٍ سَمِعْتُهُ في حَياتي !»

« هذا مَكانٌ في جُمْلَتِهِ غيرُ عاديٍّ . انْظُرْ إلى تِلْكَ التِّلالِ هُناكَ ، ماذا تَرى فيها ؟»

كانَ المُنْحَدَرُ بِرُمَّتِهِ مُغطّى بِحَلَقاتٍ رَماديَّةِ اللَّوْنِ مِنَ الحجارَةِ ، يوجَدُ مِنْها عِشْرونَ حجراً عَلى الأقَلِّ .

« ما هَذا ؟ حَظائِرُ لِلْغَنَمِ ؟»

« لا إنَّها مَساكِنُ كانَتْ لِلسُّكّانِ الأوائِلِ ، الّذينَ اسْتَقَرّوا

في أعْدادٍ غَفيرةٍ عَلى المُسْتَنْقَعِ ، وَكانوا يَسوقونَ ماشِيَتَهُمْ عَلى هذه المُنْحَدراتِ . وَكانوا يَحْفِرونَ الأرْضَ طَلَباً لِمَعْدِنِ القَصْديرِ ، عِنْدما بَدَأَ السَّيْفُ المَعْدِنِيُّ يَحِلُّ مَحَلَّ الفأسِ الحَجَرِيَّةِ . أَجَلْ ، إنَّكَ لَتُشاهِدُ عَلى ذَلِكَ المُسْتَنْقَعِ أشْياءَ آيَةً في الغَرابَةِ . أيْ دُكْتور واطْسُن ، اسْتأذِنُكَ هُنَيْهَةً .»

عَبَرَتْ ذُبابَةٌ حَيْثُ كُنّا ، وَلِلتَّوِّ راحَ ستيبلتن يُطارِدُها بِسُرْعَةٍ وَنَشاطٍ ، فَوَلَّتْ هارِبَةً فَوْقَ المُسْتَنْقَعِ الكَبيرِ ، بَيْدَ أنَّ صاحِبي لَمْ يَتَوَقَّفْ لَحْظَةً ، فَقَدْ ذَهَبَ مِنْ بُقْعَةٍ إلى أخْرى وَراءَها بِشَبَكَتِهِ الخَضْراءِ وَهِيَ تَتَمَوَّجُ في الهَواءِ : أمّا أنا فَكُنْتُ أرْقُبُ مُشْفِقاً عَلَيْهِ أنْ تَزِلَّ قَدَمُهُ عَلى المُسْتَنْقَعِ الخَطِرِ . وَأنا لَكَذَلِكَ إذْ تَرامى إلى سَمْعي وَقْعُ أقْدامٍ ، فَالْتَفَتُّ لأرى امْرأةً تَدْنو مِنّي عَلى المَمَرِّ .

لَمْ يُساوِرْني شَكٌّ في أنَّ تِلْكَ السَّيِّدَةَ كانَتِ الآنِسَةَ ستيبلتن . حَيْثُ لَمْ يَكُنْ إلا القَليلُ مِنَ السَّيِّداتِ عَلى المُسْتَنْقَعِ . وَكانوا يُشيدونَ بِجَمالِها . وَلَمْ يَكُنْ ثَمَّ كَبيرُ اخْتِلافٍ بَيْنَ أخٍ وَأخْتِهِ ، مِثْلَ الّذي كانَ بَيْنَهُما ؛ إذْ كانَ شَعْرُهُ فاتِحَ اللَّوْنِ وَعَيْناهُ

رَمادِيَّتَيْنِ ، في حينِ كانَتْ هِيَ سَمْراءَ بِوَجْهٍ مُتَوَهِّجٍ وَعَيْنَيْنِ سَوْداوَيْنِ فيهِما شَغَفٌ . وَكانَتْ بِجِسْمِها المَديدِ النَّحيلِ وَثَوْبِها القَشيبِ لَوْحَةً غَريبَةً في مَمَرٍّ أَعْزَلَ مَهْجورٍ عَلى المُسْتَنْقَعِ .

رَفَعْتُ قُبَّعَتي تَحِيَّةً لَها ، وَلَمّا هَمَمْتُ بِالكَلامِ ابْتَدَرَتْني قائِلَةً : « عُدْ لِلتَّوِّ ! عُدْ أَدْراجَكَ إِلى لَنْدَنَ ! »

ما زِدْتُ عَلى أَنْ تَطَلَّعْتُ إِلَيْها في دَهْشَةٍ ، وَسَأَلْتُها : « وَفيمَ ذَهابي ؟ »

قالَتْ في نَبْرَةٍ خَفيفَةٍ مُلْتاعَةٍ : « لا يُمْكِنُني الإِيضاحُ ، وَلَكِنْ بِرَبِّكَ افْعَلْ ما طَلَبْتُهُ مِنْكَ . عُدْ وَلا تَطَأْ قَدَماكَ هَذا المُسْتَنْقَعَ مَرَّةً أُخْرى ».

« لَكِنَّني حَضَرْتُ لِتَوِّي ».

« أَلا تُدْرِكُ مَعْنى تَحْذيرِكَ ؟ لِمَصْلَحَتِكَ أَنْتَ عُدْ إِلى لَنْدَنَ ! ابْتَعِدْ عَنْ هَذا المَكانِ ! أَخي قادِمٌ ، فَلا تُخْبِرْهُ بِكَلِمَةٍ مِمّا فُهْتُ بِهِ ».

وَكانَ ستيبلتن قَدْ كَفَّ عَنْ مُطارَدَةِ الذُّبابَةِ ، فَقالَ .

« مَرْحى ، يا بيريل ! لَقَدْ قَدَّمْتِ لَهُ نَفْسَكِ عَلى ما أَظُنُّ ».

« نَعَمْ ، كُنْتُ أَقولُ لِسِيرِ هنري إِنَّهُ قَدْ تَأَخَّرَ عَنْ زِيارَةِ مَفاتِنِ المُسْتَنْقَعِ وَمُشاهَدَتِهِ ».

« لِماذا ؟ مَنْ تَظُنّينَهُ ؟ »

« أَظُنُّ أَنَّهُ سِيرِ هنري باسكرڤيل ».

قُلْتُ : « لا ، لا ، أَنا أَحَدُ أَصْدِقائِهِ ، وَاسْمي الدُّكْتور واطْسُن ».

« آهْ ! إِذاً فَقَدِ ارْتَكَبْتُ حَماقَةً ! وَلَكِنْ لِمَ لا تَأْتي لِتَرى ميريبيت هاوس ؟ »

وَمَشَيْنا خُطُواتٍ قَليلَةً إِلى مَنْزِلٍ حَجَرِيٍّ مُجَرَّدٍ مِنَ الزَّخْرَفَةِ. وكانَتِ الأَشْجارُ حَوْلَهُ صَغيرَةً وَمُعْوَجَّةً ، وَقَدْ خَيَّمَ عَلى المَكانِ كُلِّهِ مَسْحَةٌ مِنَ الحُزْنِ . وَساءَلْتُ نَفْسي : تُرى ما الَّذي جاءَ بِهَذا العالِمِ وَتِلْكَ المَرْأَةِ الجَميلَةِ لِلْعَيْشِ في مِثْلِ هَذا المَكانِ ؟

قالَ وَكَأَنَّهُ فَطِنَ إِلى أَفْكاري : « بُقْعَةٌ غَريبَةٌ يَتَحَيَّرُها المَرْءُ ، أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ وَمَعَ ذَلِكَ نَسْتَطيعُ أَنْ نَجْلُبَ لأَنْفُسِنا السَّعادَةَ . أَوَلَيْسَ كَذَلِكَ ، يا بيريل ؟ كانَتْ لي – يَوْماً ما – مَدْرَسَةٌ في شَمالِ إِنْجِلْتِرا ، لَكِنَّ القَدَرَ كانَ لَنا بِالمِرْصادِ . فَقَدِ انْتَشَرَ مَرَضٌ خَطيرٌ في المَدْرَسَةِ ، وَماتَ ثَلاثَةٌ مِنَ التَّلاميذِ . وَلَمْ

تَسْتَرِدَّ المَدْرَسَةُ وَضْعَها بَعْدَ ذلِكَ ، وَفَقَدَتْ كَثيراً مِنْ رَأْسِ المالِ ، يَبْدُو أنّي أجِدُ مَجالاً غَيْرَ مَحْدودٍ لِلْعَمَلِ هُنا . وَشَقيقَتي مَعْنِيَّةٌ بِالطَّبيعَةِ مِثْلي ، وَلَنا كُتُبٌ وَدِراساتٌ ، وَعِنْدَنا جيرانٌ مَرِحونَ . وَالدُّكْتور مورتيمر رَجُلٌ عَلى أعْلى مُسْتَوىً في مَجالِ تَخَصُّصِهِ . وَكانَ سير تشارلز المِسْكينُ نِعْمَ الرَّفيقُ . لَقَدْ عَرَفْناهُ حَقَّ المَعْرِفَةِ ، وَقَدِ افْتَقَدْناهُ بِدَرَجَةٍ أكْثَرَ مِمّا أصِفُ لَكَ !»

لَقَدْ تُقْتُ إلى أنْ أعودَ أدْراجي إلى مَكانِيَ القَديمِ ؛ فَلَقَدْ أزْعَجَتْني كَآبَةُ المُسْتَنْقَعِ ، وَمَوْتُ الحِصانِ التَّعِسِ ، وَالصَّوْتُ الغَريبُ المُتَعَلِّقُ بِآلِ باسكرڤيل ، ثُمَّ تَحْذيرُ الآنِسَةِ ستيبلتن الَّذي بادَرَتْني بِهِ بِجِدِّيَّةٍ شَديدَةٍ ، فَلا بُدَّ أنَّ هُناكَ سَبَباً خَطيراً لِذلِكَ التَّحْذيرِ . وَرَفَضْتُ دَعْوَةً إلى الغَداءِ ، ثُمَّ رَجَعْتُ بِعَقْلٍ أثْقَلَتْهُ المَخاوِفُ القائِمَةُ إلى قَصْرِ باسكرڤيل .

الفَصْلُ الثّامِنُ

الآنَ سَأتَتَبَّعُ مَجْرَياتِ الأحْداثِ بِتَدْوينِ خِطاباتي الَّتي سَوْفَ أُرْسِلُها إلى السَّيِّدِ شِرْلوك هولمز ، وَالمَوْضوعَةِ أمامي عَلى الطّاوِلَةِ ، وَهِيَ سَتُنْبِئُ عَنْ مَشاعِري في كُلِّ لَحْظَةٍ ، أكْثَرَ مِنِ اعْتِمادي عَلى الذّاكِرَةِ .

قَصْرُ باسكرڤيل

١٣ أكتوبر

عَزيزي هولمز ،

خِطاباتي السّابِقَةُ وَرَسائِلي تُعْطيكَ زاداً كافِياً مِنَ المَعْلوماتِ ، حَتّى آخِرِ لَحْظَةٍ ، عَنْ كُلِّ ما جَرى في هَذا الرُّكْنِ القَصِيِّ مِنْ إنْجِلْترا . لكِنَّني لَمْ أذْكُرْ سِوى القَليلِ عَنِ السَّجينِ الهارِبِ المُعْتَصِمِ بِالمُسْتَنْقَعِ . وَقَدْ مَضى أسْبوعانِ عَلى هَرَبِهِ ، وَهِيَ فَتْرَةٌ لَمْ يَرَهُ فيها أحَدٌ ، وَلَمْ يُسْمَعْ عَنْهُ شَيْءٌ وَبِطَبيعَةِ الحالِ أيٌّ مِنْ

تِلْكَ الأكْواخِ الخَرِبَةِ يَصْلُحُ لإيوائِهِ .

وَقَدْ بَدَا صَديقُنا سير هنري يُبْدي اهْتِمامَهُ بِجارَتِهِ الحَسْناءِ ، ومُنْذُ اللَّحْظَةِ الأولى وهُوَ يَبْدو مُنْجَذِباً إلَيْها . وَمُنْذُ تِلْكَ الآوِنَةِ لا يَكادُ يَمْضي يَوْمٌ دونَ أنْ نَرى شَيْئاً بَيْنَ الشَّقيقِ وَالشَّقيقَةِ . إنَّهُما يَتَعَشَّيانِ هُنا اللَّيْلَةَ ، وَثَمَّ كَلامٌ عَنْ ذَهابِنا إلَيْهِما الأسْبوعَ القادِمَ . ولِلْمَرْءِ أنْ يَتَصَوَّرَ أنَّ مِثْلَ هذا الاهْتِمامِ سَوْفَ يُرَحِّبُ بِهِ ستيبلتن ، وَمَعَ ذلِكَ فَقَدْ رَأيْتُ أكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ أماراتِ الغَضَبِ عَلى وَجْهِهِ ، كُلَّما تَحَدَّثَ سير هنري مَعَ شَقيقَتِهِ . بِهذِهِ المُناسَبَةِ ، لَقَدْ أمَرْتَني ألا أسْمَحَ لِسير هنري بِالخُروجِ وَحْدَهُ إطْلاقاً ؛ سَوْفَ تُصْبِحُ هذِهِ الأوامِرُ أكْثَرَ تَعْقيداً إذا أضيفَتْ شُئونُ الحُبِّ لِمَتاعِبِنا الأخْرى ، وَلَسَوْفَ تَهْبِطُ شَعْبِيَّتي .

وَالآنَ دَعْني أخْبِرْكَ عَنْ عائِلَةِ باريمور .

لَقَدْ أخْبَرَني سير هنري أنَّهُ قَدْ خَلَعَ عَلى باريمور كَثيراً مِنْ ثِيابِهِ القَديمَةِ ؛ حَيْثُ إنَّ المَلابِسَ الجَديدَةَ الَّتي ابْتاعَها مِنْ لَنْدن قَدْ وَصَلَتْهُ وَتَسَلَّمَها . وَالسَّيِّدَةُ باريمور تَهُمُّني كَثيراً ؛ وَهِيَ سَيِّدَةٌ ثَقيلَةُ الظِّلِّ ، وَلَنْ تَسْتَطيعَ أنْ تَتَصَوَّرَ شَخْصاً أشَدَّ مِنْها بُروداً . وَرَغْمَ ذلِكَ فَكَثيراً ما ألْمَحُ آثارَ الدُّموعِ عَلى وَجْهِها ، فَثَمَّ أسىً

عَميقٌ يَعْتَمِلُ في قَلْبِها . وَأحْياناً أسائِلُ نَفْسي عَمَّا إذا كانَتْ ...ي مِنَ الشُّعورِ بِالذَّنْبِ ، وَأحْياناً أخْرى أرْتابُ في أنْ يَكونَ ...وْجُها يُعامِلُها بِغِلْظَةٍ وَفَظاظَةٍ . وَلَقَدْ شَعَرْتُ دَوْماً أنَّ هُناكَ ما يُريبُ الإنْسانَ في هذا الرَّجُلِ .

إنَّكَ لَتَعْلَمُ أنَّ نَوْمي قَليلٌ ، وَما دُمْتُ قائِماً بِحِراسَةٍ وَرِعايَةٍ في هذِهِ الدّارِ – فَقَدْ صارَ نَوْمي أقَلَّ مِنْ ذي قَبْلُ وَفي اللَّيْلَةِ الماضِيَةِ ، حَوالَى السّاعَةِ الثّانِيَةِ صَباحاً ، اسْتَيْقَظْتُ مِنْ نَوْمي لأسْمَعَ وَقْعَ أقْدامٍ حَذِرَةٍ تَمُرُّ بِغُرْفَتي . وَلِلتَّوِّ مَرَّتْ ثانِيَةً في طَريقِ العَوْدَةِ ، وَلا أسْتَطيعُ أنْ أخَمِّنَ ماذا يَعْني كُلُّ ذلِكَ ، بَيْدَ أنَّ هُناكَ عَمَلاً خَفِيّاً يَجْري في هذِهِ الدّارِ المُظْلِمَةِ ، وَقَدْ أجْرَيْتُ حَديثاً مَعَ سير هنري ، وَ وَضَعْنا خُطَّةً لَنْ أكْتُبَ لَكَ عَنْها الآنَ ، لكِنَّها سَتَجْعَلُ تَقْريرِيَ التّالِيَ مُمْتِعاً .

الفَصْلُ التّاسِعُ

قَصْرُ باسكرڤيل

١٥ أكتوبر

عَزيزي هولمز ،

بَعْدَ أنْ فَرَغْنا مِنْ تَناوُلِ طَعامِ الإفْطارِ ، ارْتدى سير هنري قُبَّعتَهُ، وَتَأَهَّبَ لِمُغادَرَةِ المكانِ ، وَحَذَوْتُ حَذْوَهُ .

« ماذا ؟ أ قادِمٌ أنْتَ مَعي ، يا واطْسُن ؟»

« لَقَدْ سَمِعْتَ كَيْفَ حَذَّرَنا هولمز جِدِّيًا مِنْ أنَّهُ يَجِبُ ألا نَمْشِيَ وَحْدَكَ على المُسْتَنْقَعِ .»

قالَ وَقَدْ بَدَتْ عَلى مُحَيّاهُ ابْتِسامَةٌ عَذْبَةٌ : « صاحِبي العَزيز، إنَّ هولمز ، بِكُلِّ ما أوتِيَ مِنْ حِكْمَةٍ ، لَمْ يَتَوَقَّعْ بَعْضًا مِنَ الأشْياءِ الَّتي وَقَعَتْ مُنْذُ حُضوري إلى هذا المَكانِ . أ لا تَفْهَمُني ؟

يَجِبُ أنْ أخْرُجَ وَحْدي .»

لَقَدْ أوْقَعَني في أشَدِّ الحَرَجِ ، وَقَبْلَ أنْ أفَكِّرَ الْتَقَطَ عَصاهُ وَرَحَلَ . بَيْدَ أنَّ ضَميري راحَ يُؤَنِّبُني لِتَرْكِهِ يَغيبُ عَنْ ناظِرَيَّ ، وَلِذلِكَ هُرِعْتُ بِأقْصى ما أسْتَطيعُ مُتَّجِهًا صَوْبَ ميرِپيت هاوس . وَحينَما تَفَرَّعَ المُسْتَنْقَعُ ، خَشيتُ أنْ أضِلَّ الطَّريقَ ، وَرَغْمَ ذَلِكَ فَقَدْ تَسَلَّقْتُ تَلًا حَتّى أسْتَطيعَ الرُّؤْيَةَ عَلى مَدًى أبْعَدَ ، وَسُرْعانَ ما رَأتْهُ عَيْناي عَلى البُعْدِ . وَكانَ ثَمَّةَ امْرَأةٌ ، وَلَنْ تَكونَ سِوى الآنِسَةِ ستيپلتن ، بِجانِبِهِ . عِنْدَ ذاكَ وَقَفْتُ بَيْنَ الصُّخورِ مُتَحَيِّرًا أشَدَّ الحَيْرَةِ فيما عَساي أفْعَلُهُ بَعْدُ . ثُمَّ أدْرَكْتُ فَجْأةً أنَّني لَمْ أكُنِ الشّاهِدَ الوَحيدَ عَلى الحَديثِ الَّذي دارَ بَيْنَهُما . وَلَمَحْتُ شَبَكَةَ ستيپلتن ، وَكانَ أقْرَبَ إلَيْهِما مِنّي . وَلاحَ مُتَّجِهًا نَحْوَهُما ، وَفي اللَّحْظَةِ نَفْسِها أسْرَعَ سير هنري بِضَمِّها إلى جانِبِهِ ، وَكانَتْ ذِراعُهُ مُلْتَفَّةً حَوْلَها ، وَبَدا لي أنَّها تَتَحَوَّلُ عَنْهُ . وَفي اللَّحْظَةِ التّالِيَةِ رَأيْتُهُما يَقْفِزانِ مُبْتَعِدَيْنِ ، وَيَدورانِ مُسْرِعَيْنِ .

كانَ ستيپلتن يَعْدو نَحْوَهُما في حالَةٍ وَحْشِيَّةٍ ، وَكانَ يَهْتَزُّ مِنْ شِدَّةِ انْفِعالِهِ وَهُوَ واقِفٌ قُدّامَ الحَبيبَيْنِ . تُرى ماذا كانَ يَعْني هذا المَنْظَرُ ؟ لَمْ أسْتَطِعِ التَّخَيُّلَ ، لكِنْ بَدا لي أنَّ ستيپلتن كانَ

وقحًا مَعَ سير هنري ، الَّذي قَدَّمَ لَهُ إيضاحاتٍ زادتْ مِنْ حِدَّتِهِ وَغَضَبِهِ ، وَأبى قَبولَها . وَفي النِّهايَةِ تَرَكَهُما سير هنري ، وَراحَ يَمْشي الهُوَيْنا في الطَّريقِ ، عائِدًا مِنْ حَيْثُ أتى . تُرى ماذا كانَ يَعْني كُلُّ ذلِكَ ؟ لَسْتُ أدْري ! وَمِنْ ثَمَّ رُحْتُ أُهَرْوِلُ هابِطًا التَّلَّ ، وَقابَلْتُهُ وَأوْضَحْتُ لَهُ أنّي رَأَيْتُ أنَّهُ مِنَ المُسْتَحيلِ أنْ أبْقى حَيْثُ كُنْتُ ، وَأنّي شاهَدْتُ كُلَّ شَيْءٍ ، وَكُنْتُ مِنَ الصَّراحَةِ بِحَيْثُ راحَ يَضْحَكُ أخيرًا ، وَقالَ : « كُلُّ جيرانِنا عَلى ما يَبْدو كانوا يُراقِبونَنا ! وَهَلْ تَبَدّى لَكَ أنَّ أخاها انْتابَتْهُ حالَةُ جُنونٍ ؟ مَهْما يَكُنْ مِنْ أمْرٍ ، أَثَمَّ شَيْءٌ يَحولُ بَيْني وَبَيْنَ أنْ أكونَ زَوْجًا صالِحًا لِسَيِّدَةٍ أحْبَبْتُها ؟ »

« إطْلاقًا » .

« لَمْ أعْرِفْها إلا مُنْذُ بِضْعَةِ أسابيعَ ، لكِنَّني مُنْذُ البِدايَةِ شَعَرْتُ أنَّها إنَّما خُلِقَتْ لي ، وَأنَّها كانَتْ تُرَفْرِفُ عَلَيْها السَّعادَةُ وَهِيَ بِرُفْقَتي . أُقْسِمُ بِاللهِ عَلى ذلِكَ ! لكِنَّهُ لَمْ يَتْرُكْنا وَحْدَنا قَطُّ . وَاليَوْمَ واتَتْني الفُرْصَةُ لِأوَّلِ مَرَّةٍ . كانَتْ تُرَدِّدُ دائِمًا أنَّ هذا المَكانَ مِنَ الخُطورَةِ بِمَكانٍ ، وَأنَّها لَنْ تَشْعُرَ بِالسَّعادَةِ ما لَمْ أُغادِرْهُ ؛ فَأجَبْتُها بِأنّي ما دُمْتُ قَدْ رَأَيْتُها فَلَنْ أتَعَجَّلَ العَوْدَةَ إلا

إذا كانَتْ مَعي ، ثُمَّ عَرَضْتُ عَلَيْها الزَّواجَ ، وَقَبْلَ أنْ تُجيبَني داهَمَنا أخوها بِوَجْهٍ مُكْفَهِرٍّ . ماذا كُنْتُ أفْعَلُ بِالفَتاةِ ؟ وَكَيْفَ جَرُؤْتُ أوْ يَدورُ في خَلَدي أنَّني – وَقَدْ كُنْتُ مِنْ أصْحابِ الرُّتَبِ – يُمْكِنُ أنْ أفْعَلَ ما بَدا لي ؟ بَعْدَها فَقَدْتُ أعْصابي أنا أيْضًا وَأجَبْتُهُ بِأقْسى مِمّا كانَ يَتَصَوَّرُهُ مِنْ فَظاظَةٍ . وَانْتَهَتِ المُشْكِلَةُ بِأنِ انْطَلَقَ بِها كَما رَأَيْتَ تارِكًا إيّايَ في حَيْرَةٍ! أكونُ مَدينًا لَكَ إذا فَسَّرْتَ لي ماذا يَعْني هذا » .

تَحَيَّرْتُ ، فَثَرْوَةُ صاحِبي ، وَشَبابُهُ ، وَخُلُقُهُ الحَميدُ ، وَوَسامَتُهُ كُلُّها في صَفِّهِ ، وَلا أعْرِفُ شَيْئًا ضِدَّهُ سِوى هذا الحَظِّ المُظْلِمِ الَّذي تَعَلَّقَ بِأُسْرَتِهِ . عَلى أنَّ تَخْميناتي انْتَهَتْ بِزِيارَةٍ مِنْ ستيبلتن في عَصْرِ ذلِكَ اليَوْمِ بِعَيْنِهِ ، فَقَدْ أقْبَلَ لِيُعْرِبَ عَنْ أسَفِهِ الشَّديدِ عَمّا بَدَرَ مِنْهُ ذلِكَ الصَّباحَ ، وَأنَّهُ نَسِيَ ما حَدَثَ ، وَدَليلٌ عَلى ذلِكَ أنَّهُ يَدْعونا لِلْعَشاءِ مَعًا في ميريبيت هاوس لَيْلَةَ الجُمُعَةِ القادِمَةِ .

قالَ سير هنري : « أنا لا أزْعُمُ الآنَ أنَّ هذا الرَّجُلَ لَيْسَ بِعَقْلِهِ مَسٌّ ، فَأنا لَنْ أنْسى مَنْظَرَ عَيْنَيْهِ عِنْدَما هاجَمَني صَباحَ اليَوْمِ . إنَّ شَقيقَتَهُ هِيَ كُلُّ شَيْءٍ في حَياتِهِ . كَما أفْضى إلَيَّ ، وَهُما

معاً دوماً . وَ وَفْقاً لِما فَصَّلَهُ كانَ إنْساناً وَحيداً أعْزَلَ حَتّى وَهِيَ بِصُحْبَتِهِ، وَلِذلِكَ فَإنَّهُ اعْتَبَرَ فُقْدانَها شَيْئاً مُرَوِّعاً بِالنِّسْبَةِ لَهُ ، وَلَمْ يُدْرِكْ ، كَما قالَ ، أنّني كُنْتُ كَلِفاً بِها ، إلا عِنْدَما رَأى بِعَيْنَيْهِ ما كانَ يَجْري . وَقَدْ أحْدَثَ هَذا صَدْمَةً لَهُ إلى حَدِّ أنَّهُ لَمْ يَكُنْ مَسْئولاً عَمّا كانَ يَقولُهُ ، وَهكَذا اسْتَقَرَّتِ الأمورُ .»

وَالآنَ أنْتَقِلُ إلى خَيْطٍ آخَرَ في قِصَّتِنا . سَهِرْتُ اللَّيْلَةَ الماضِيَةَ مَعَ سير هنري في غُرْفَةِ نَوْمِهِ ، وَمَرَّتِ السّاعاتُ بَطيئَةً ، وَدَقَّتِ السّاعَةُ الواحِدَةَ ثُمَّ الثّانِيَةَ ، وَكِدْنا نَكُفُّ عَنِ العَمَلِ يَأساً ، غَيْرَ أنَّهُ طَرَقَ آذانَنا وَقْعُ أقْدامٍ ، حَضَرَتْ ثُمَّ غابَتْ ، فَفَتَحْنا البابَ بِهُدوءٍ وَخَرَجْنا لِنَتَتَبَّعَ تِلْكَ الخُطُواتِ ؛ فَرَأَيْنا شَبَحاً طَويلَ القامَةِ ، ذا لِحْيَةٍ سَوْداءَ وَهُوَ يَدْخُلُ غُرْفَةً خالِيَةً ، حَتّى إذا ما تَطَلَّعْنا فيها أَلْفَيْناهُ عِنْدَ النّافِذَةِ وَهُوَ يَحْمِلُ في يَدِهِ مِصْباحاً ، وَيَتَطَلَّعُ في العَتَمَةِ مُعْتَمِداً بِوَجْهِهِ عَلى زُجاجِ النّافِذَةِ .

« ماذا تَفْعَلُ هُنا ، يا باريمور ؟»

فَما كانَ مِنْهُ إلا أنْ وَثَبَ مِنَ النّافِذَةِ مُمْتَقَعَ اللَّوْنِ وَهُوَ يَرْتَجِفُ، وَعَيْناهُ حافِلَتانِ بِالدَّهْشَةِ وَالخَوْفِ ، وَهُوَ يُرَدِّدُ البَصَرَ بَيْني وَبَيْنَ هنري، وَقالَ : « لا شَيْءَ ، يا سَيِّدي !»

« تَعالَ الآنَ ، لا تَكْذِبْ عَلَيَّ ! ماذا كُنْتَ تَفْعَلُ عِنْدَ تِلْكَ النّافِذَةِ ؟»

قُلْتُ : « لا بُدَّ أنَّهُ يَبْعَثُ بِإشارَةٍ ، فَلْنَنْظُرْ هَلْ هُناكَ إجابَةٌ .» ثُمَّ حَمْلَقْتُ في الظَّلامِ وَحَرَّكْتُ الضَّوْءَ عَبْرَ النّافِذَةِ ، فَرَأَيْتُ خَطّاً مِنَ الضَّوْءِ أصْفَرَ ، يَنْبَعِثُ مِنَ الظَّلامِ ، وَكانَ هُوَ الآخَرُ يَتَحَرَّكُ .

قُلْتُ : « اُنْظُرِ الآنَ ! أَتَسْتَطيعُ القَوْلَ بِأنَّ ذلِكَ لَيْسَ إشارَةً ما ؟ ما الَّذي يَجْري هُنا ؟»

« لَنْ أُخْبِرَكُما بِشَيْءٍ !»

« اُتْرُكْ خِدْمَتي في الحالِ ! لَقَدْ عاشَتْ أُسْرَتُكَ مَعَ أُسْرَتي ما يَزيدُ عَلى مِئَةِ عامٍ تَحْتَ هذا السَّقْفِ . وَأنا أرى الآنَ أنَّكَ تَسيرُ في رِكابِ خُطَّةٍ شَيْطانِيَّةٍ ضِدّي أنا .»

« لا ، لا ، يا سَيِّدي ، لَيْسَ ضِدَّكَ !»

كانَتِ السَّيِّدَةُ باريمور أشَدَّ امْتِقاعاً وَرُعْباً مِنْ زَوْجِها وَهِيَ واقِفَةٌ بِالبابِ ، وَقالَتْ : « إنَّ أخي التَّعِسَ مَوْجودٌ عَلى المُسْتَنْقَعِ الآنَ ، وَلَنْ نَسْتَطيعَ أنْ نَتْرُكَهُ يَموتُ عَلى بابِنا ! وَهَذا الضَّوْءُ

عَلامَةً على أنَّ الطَّعامَ مُعَدٌّ لَهُ ، وَذَلِكَ الضَّوْءُ مِنْهُ إشارَةٌ جُعِلَتْ لِتُرْشِدَنا مَتى نَصْطَحِبُهُ ».

« مَنْ أخوكِ ؟»

« السَّجينُ الهارِبُ ، يا سَيِّدي . سيلدن القاتِلُ . أجَلْ ، يا سَيِّدي ، وَهُوَ شَقيقِي الأصْغَرُ . وَعِنْدَما هَرَبَ مِنَ السِّجْنِ ، يا سَيِّدي ، كانَ عَلى ثِقَةٍ بأنّي لَنْ أتَخَلّى عَنْ مُساعَدَتِهِ ، فَجاءَ إلى هُنا في إحْدى اللَّيالي مَكْدوداً جَوْعانَ ، وَكانَ الحُرّاسُ في إثْرِهِ . ماذا عَسانا كُنّا نَفْعَلُ ؟ آوَيْناهُ وَأطْعَمْناهُ ، ثُمَّ حَضَرْتُ إلى هُنا ، يا سَيِّدي ، وَظَنَّ أخي أنَّهُ سَوْفَ يَكونُ في مَأمَنٍ هُنا . وَكُنّا كُلَّ يَوْمٍ نَوَدُّ أنْ يَذْهَبَ إلى حالِ سَبيلِهِ ، بَيْدَ أنَّهُ ما دامَ عِنْدَنا فَلَنْ نَتَخَلّى عَنْهُ ».

« أهَذا صَحيحٌ ، يا باريمور ؟»

« أجَلْ ، يا سَيِّدي ، في كُلِّ كَلِمَةٍ ».

« حَسَنٌ ! أنا لا ألومُكَ في تَأييدِ زَوْجَتِكَ ، وَانْسَ كُلَّ ما قُلْتُ ، وَسَوْفَ نَتَحَدَّثُ أكْثَرَ في الصَّباحِ ».

وَعِنْدَما انْصَرَفا رُحْنا نَتَطَلَّعُ مَرَّةً ثانِيَةً ؛ فَلَمَحْنا في العَتَمَةِ

خَيْطاً مِنَ الضَّوْءِ الأصْفَرِ .

« لا يُمْكِنُ أنْ يَكونَ بَعيداً ، إذا كانَ باريمور يَحْمِلُ الطَّعامَ إلَيْهِ ».

« القاتِلُ مُخْتَبِئٌ عِنْدَ هَذا الضَّوْءِ ! بِحَقِّ السَّماءِ ، يا واطْسُن ، إنّي ذاهِبٌ لِلْقَبْضِ عَلى ذَلِكَ الرَّجُلِ ».

لَقَدْ مَرَّتْ بِعَقْلي الفِكْرَةُ نَفْسُها . لَقَدْ كانَ الرَّجُلُ خَطِراً على المُجْتَمَعِ ؛ وَأيُّ مُجْرِمٍ مِثْلُهُ غَيْرُ خَليقٍ بِالرَّحْمَةِ أو العَفْوِ . وَإذا أعَدْناهُ إلى السِّجْنِ فَإنَّما نَقومُ بِواجِبِنا ؛ حَيْثُ نَكُفُّ أذاهُ عَنِ النّاسِ .

وَعِنْدَما بَلَغْنا المُسْتَنْقَعَ ، بَدَأ شَيْءٌ مِنَ الرَّذاذِ يَسْقُطُ مِنَ السَّماءِ .

« واطْسُن ، ماذا عَسى هولمز أنْ يَقولَ بِهَذا الصَّدَدِ ؟ وَما بالُ ساعاتِ الظُّلْمَةِ عِنْدَما تَحْتَدِمُ قُوى الشَّرِّ إلى أقْصى مَداها ؟»

وَكَأنَّما جاءَهُ الجَوابُ ؛ فَقَدِ انْبَعَثَتْ فَجْأةً في ظُلْمَةِ المُسْتَنْقَعِ تِلْكَ الصَّرْخَةُ الغَريبَةُ ، الَّتي كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُها مِنْ قَبْلُ عَلى حافَةِ غريمبين ماير العَظيمَةِ ، وَقَدْ أقْبَلَتْ مَعَ الرّيحِ صَوْتٌ

عَميقٌ ارْتَفَعَ إلى ضَجَّةٍ مُهَدِّدَةٍ مَلأَتِ الجَوَّ كُلَّهُ ، ثُمَّ تَبَدَّدَتْ .

« بِحَقِّ السَّماءِ ما هذا ، يا واطْسُن ؟ »

« لَسْتُ أدْري ، إنَّهُ صَوْتٌ يَغْشاهُمْ على المُسْتَنْقَعِ ، وَلَقَدْ سَمِعْتُهُ مَرَّةً قَبْلَ الآنَ . »

« واطْسُن ، إنَّهُ صَرْخَةُ الكَلْبِ ! وَهُناكَ نَبْرَةٌ في صَوْتِهِ تَنِمُّ عَلى فَزَعٍ طارِئٍ أَلَمَّ بِهِ . ماذا يُسَمّي النّاسُ هَذا الصَّوْتَ ؟ »

تَرَدَّدْتُ في الإجابَةِ ، لَكِنَّني لَمْ أَسْتَطِعِ الهُروبَ مِنَ السُّؤالِ .

« يَقولونَ إنَّها صَرْخَةُ كَلْبِ آلِ باسكرفيل . »

« أَلَمْ تَكُنْ آتِيَةً مِنْ ناحِيَةِ غريمبين ماير ؟ أَلَمْ يَخْطُرْ بِبالِكَ أَنْتَ أَنَّها صَرْخَةُ كَلْبٍ ؟ أنا لَسْتُ طِفْلاً ! قُلِ الحَقيقَةَ ! »

« ستيبلتن كانَ مَعي عِنْدَما سَمِعْتُ هذا الصَّوْتَ مِنْ قَبْلُ ، وَقالَ لَعَلَّهُ صَيْحَةُ أَحَدِ الطُّيورِ الغَريبَةِ . »

« لا ، لا ، لَقَدْ كانَ كَلْباً . رَبّاهُ ! أَلا نَجِدُ شَيْئاً مِنَ الحَقيقَةِ في هَذِهِ القِصَصِ ؟ وَهَلْ مِنَ الجائِزِ أَنْ أَكونَ أنا في خَطَرٍ ؟ لَقَدْ كانَ شَيْئاً مُثيراً لِلضَّحِكِ في لَنْدَن ، لَكِنَّهُ شَيْءٌ آخَرُ أَنْ نَقِفَ هُنا في الظَّلامِ عَلى المُسْتَنْقَعِ ، وَأَنْ يَطْرُقَ آذانَنا مِثْلُ

تِلْكَ الصَّرْخَةِ . أنا لَسْتُ جَباناً ، يا واطْسُن ! لكِنَّ هَذا الصَّوْتَ يَكادُ يُجَمِّدُ الدَّمَ في عُروقي ! »

وَمَضَيْنا قُدُماً في الظَّلامِ بِخُطىً وَئيدَةٍ ، وَمِنْ حَوْلِنا التِّلالُ السَّوْداءُ ، وَالنُّقْطَةُ الصَّفْراءُ مِنَ الضَّوْءِ تَشْتَعِلُ أمامَنا في ثَباتٍ . أخيراً عَرَفْنا مِنْ أَيْنَ جاءَتْ ؛ كانَتْ مَغْروسَةً في شَقٍّ في الصُّخورِ الَّتي حَجَبَتْها ؛ فَلا تُرى إلا مِنْ ناحِيَةِ قَصْرِ باسكرفيل .

ثُمَّ رَأَيْناهُ ! اِرْتَفَعَ فَوْقَ الصُّخورِ وَجْهٌ شَيْطانِيٌّ أَصْفَرُ أَشْبَهُ بِوَجْهِ حَيَوانٍ ، وَقَدْ عَلاهُ الوَحْلُ ، وَكانَ مُحاطاً بِشَعْرٍ بَرِّيٍّ ، لَعَلَّهُ وَجْهُ أَحَدِ الرِّجالِ المُتَوَحِّشينَ مِنَ العُصورِ الغابِرَةِ ، الَّذينَ عاشوا في الأَكْواخِ الحَجَرِيَّةِ عَلى جانِبِ الجَبَلِ . فَوَثَبْنا وَثْبَةً إلى الأمامِ ، وفي اللَّحْظَةِ نَفْسِها بَعَثَ بِصَيْحَةٍ مُرْعِبَةٍ ثُمَّ اسْتَدارَ لِيَجْرِيَ . وَمِنْ حُسْنِ الحَظِّ أَنَّ القَمَرَ بَزَغَ مِنْ خِلالِ السُّحُبِ ؛ فَتَسَلَّقْنا عَلى قِمَّةِ التَّلِّ ، حَيْثُ كانَ يَعْدو بِأَقْصى سُرْعَةٍ في الجانِبِ الآخَرِ مِنَ التَّلِّ . وَلِلتَّوِّ تَبَيَّنَ لَنا أَنَّ أَمَلَنا في الإمْساكِ بِهِ أَصْبَحَ ضَعيفاً ، فَتَوَقَّفْنا وَنَحْنُ نَلْهَثُ ، ثُمَّ اسْتَدَرْنا لِنَعودَ أَدْراجَنا إلى الدّارِ .

وَفي تِلْكَ اللَّحْظَةِ وَقَعَ أَغْرَبُ الأَشْياءِ وَأَكْثَرُها بُعْداً عَنِ

التَّوَقُّعِ : انْخَفَضَ ضَوْءُ القمرِ ، ورَأَيْنا أمامَنا ، فَوْقَ صَخْرَةٍ عالِيَةٍ ، شَبَحَ رَجُلٍ . ولَمْ أَرَ في حَياتي شَيْئًا أكْثَرَ وُضوحًا مِنْ ذَلِكَ ، لَمْ يَكُنْ هَذا الشَّيْءُ الرَّجُلَ السَّجينَ ، حَيْثُ كانَ هذا الرَّجُلُ على مَبْعَدَةٍ مِنَ المكانِ الَّذي اخْتَبَأَ فيهِ المُجْرِمُ ، أَضِفْ إلى ذَلِكَ أنَّهُ كانَ أطْوَلَ قامَةً . وإنْ هي إلا هُنَيْهَةٌ ، وأنا أَلْتَفِتُ لِلإِمْساكِ بِذِراعِ رَفيقي ، حَتَّى تَوارى ذَلِكَ الشَّبَحُ عَنِ الأَنْظارِ .

لَقَدْ هَزَّتْني الرَّغْبَةُ في تَفْتيشِ الأماكِنِ المُجاوِرَةِ ، لَكِنَّ سير هنري لَمْ يُرِدِ القِيامَ بِمُغامَراتٍ أُخْرى ، فَما زالَتْ تُزْعِجُهُ تِلْكَ الصَّرْخَةُ الخَفِيَّةُ الَّتي أعادَتْ إلى ذاكِرَتِهِ قِصَّةَ عائِلَتِهِ السَّوْداءَ .

قالَ : « لا مِراءَ في أنَّ المُسْتَنْقَعَ يَغَصُّ بِحُرّاسِ السِّجْنِ مُنْذُ هَرَبَ ذَلِكَ الشَّخْصُ ».

قَدْ يَكونُ مُصيبًا صَحيحًا ، بَيْدَ أنَّني ابْتَغَيْتُ بُرْهانًا أقْوى . لا يَزالُ المُسْتَنْقَعُ بِسُكّانِهِ وأسْرارِهِ في غَرابَتِهِ كَما هُوَ . وَخَيْرُ سِياسَةٍ ، يا هولمز ، أنْ تَأْتِيَ إلَيْنا .

الفَصْلُ العاشِرُ

الآنَ أَخْتَبِرُ ذاكِرَتي ، يُعينُني في ذَلِكَ الرُّجوعُ إلى مُفَكِّرَتي الخاصَّةِ ، وأَسْتَرْسِلُ في ذَلِكَ مُنْذُ الصَّباحِ الَّذي أَعْقَبَ مُغامَرَتَنا عَلى المُسْتَنْقَعِ .

السّادِسَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ أُكْتوبر : يَوْمٌ مُمْطِرٌ ، وَالدّارُ غَلَّفَتْها السُّحُبُ ، وَيُراوِدُني شُعورٌ بِالخَطَرِ طَوالَ الوَقْتِ — خَطَرٌ يَزيدُهُ أَنَّني لا أَسْتَطيعُ وَصْفَهُ .

تَأَمَّلِ الأَحْداثَ الجارِيَةَ : مَوْتُ آخِرِ مُلاكِ القَصْرِ ، وَ تَقاريرُ عَنِ المَخْلوقِ الغَريبِ الكائِنِ في المُسْتَنْقَعِ . وَإِنَّهُ لَمِنَ الخَيْرِ الاعْتِقادُ بِأَنَّ هَذا حَقيقَةٌ خارِجَةٌ عَنْ نِطاقِ قَوانينِ الطَّبيعَةِ العادِيَّةِ ؛ روحُ كَلْبٍ تَتْرُكُ آثارَ أَقْدامٍ ، وَتَمْلأُ الجَوَّ بِصَرَخاتِها ! إذا كانَ لي مَزِيَّةٌ واحِدَةٌ عَلى الأَرْضِ فَهِيَ الإِدْراكُ الصّائِبُ ، وَلا شَيْءَ يَحْمِلُني عَلى التَّصْديقِ بِمِثْلِ هَذا الشَّيْءِ ، وَلِكَيْ يَقَعَ

مِنّي ذَلِكَ؛ أَكونُ مِثْلَ أُولَئِكَ القَرَوِيّينَ الَّذينَ لا يَقْتَنِعونَ بِما هُوَ مَعْروفٌ عَنِ الكَلْبِ الشَّيْطانِيِّ ، وَإِنَّما يَزْعُمونَ أَنَّ في فَمِهِ نارًا ، وَكَذَلِكَ في عَيْنَيْهِ. وَهولمز لا يُنْصِتُ إلى مِثْلِ هَذِهِ التُّرَّهاتِ ، لَكِنَّ الحَقائِقَ هِيَ الحَقائِقُ . وَقَدْ سَمِعْتُ مَرَّتَيْنِ تِلْكَ الصَّرْخَةَ عَلى المُسْتَنْقَعِ ، وَلْنَفْتَرِضْ أَنَّ هُناكَ كَلْبًا ضَخْمَ الجُثَّةِ مُنْطَلِقًا عَلى المُسْتَنْقَعِ ، فَأَيْنَ يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ مُخْتَبِئًا ؟ وَمِنْ أَيْنَ يَأْتيهِ الطَّعامُ ؟ وَمِنْ أَيْنَ أَتى ؟ وَلِماذا لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ في وَضَحِ النَّهارِ ؟ إِنَّ الإِيضاحَ الطَّبيعِيَّ غالِبًا ما يُقَدِّمُ مِنَ الصِّعابِ الكَثيرَةِ ما يُصارِعُ بَعْضُهُ بَعْضًا. وَما بالُ ذَلِكَ الغَريبِ الَّذي شاهَدْتُهُ عَلى الصَّخْرَةِ ؟ ذَلِكَ الشَّبَحُ كانَ أَطْوَلَ قامَةً مِن ستيبلتن . لَقَدْ تَرَكْنا باريمور خَلْفَنا في الدّارِ وَأَنا موقِنٌ بِما لا يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ شَكٌّ أَنَّهُ لَمْ يَتَعَقَّبْنا . إِنَّ غَريبًا لَمْ يَزَلْ يُراقِبُنا تَمامًا مِثْلَما كانَ يَحْدُثُ في لَنْدَن ، فَإِذا تَسَنّى لَنا القَبْضُ عَلى ذَلِكَ الرَّجُلِ فَلَرُبَّما أَتَيْنا إلى آخِرِ مَتاعِبِنا .

صَباحَ اليَوْمِ تَحَدَّثَ باريمور مَعَ سير هنري عَلى انْفِرادٍ في المَكْتَبَةِ ، ثُمَّ فَتَحَ سير هنري البابَ وَسَأَلَني أَنْ أَدْخُلَ ، وَقالَ .

« لَدى باريمور شَيْءٌ يُريدُ أَنْ يُفْضِيَ بِهِ ».

« لَقَدْ كُنْتَ كَرِيماً مَعَنا ، يا سِير هنري ، بِما يَحْفِزُني عَلى رَدِّ الجَميلِ إلَيْكَ . إنَّ لَدَيَّ شَيْئاً بِخُصوصِ مَوْتِ سِير تشارلز ، ورُبَّما كانَ لِزاماً عَلَيَّ أنْ أتَكَلَّمَ بِهِ قَبْلَ اليَوْمِ . لَكِنَّني إنَّما وَجَدْتُهُ بَعْدَ اسْتِقْصاءٍ وَتَحَرٍّ . إنّي أعْلَمُ لِماذا كانَ مُنْتَظِراً عِنْدَ البَوّابَةِ في مَمَرِّ أشْجارِ السَّرْوِ في تِلْكَ السّاعَةِ : لِيُقابِلَ امْرَأَةً ».

« لِيُقابِلَ امْرَأَةً ! هُوَ ؟ »

« أجَلْ ، يا سَيِّدي ».

« ما اسْمُها ؟ »

« لَنْ أسْتَطيعَ إعْلامَكَ بِهِ ، يا سَيِّدي ، لَكِنَّ الحَرْفَيْنِ الأوَّلَيْنِ هُما : ل . ل ».

« وَكَيْفَ عَرَفْتَ هَذا ، يا باريمور ؟ »

« كانَتْ مَعَ عَمِّكَ رِسالَةٌ في ذَلِكَ الصَّباحِ ، وَكانَتْ مِنْ كومب تريسي ، وَكانَ عُنْوانُ الرِّسالَةِ مَكْتوباً بِخَطِّ امْرَأَةٍ ، وَلَمْ أعْرِفْ عَنْها أكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ . لَكِنَّهُ مُنْذُ فَتْرَةٍ مَضَتْ ، وَبَيْنَما كانَتْ زَوْجَتي تُنَظِّفُ غُرْفَةَ سِير تشارلز – عَثَرَتْ عَلى رَمادِ خِطابٍ مُحْتَرِقٍ في المِدْفَأَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ مِنَ المُسْتَطاعِ سِوى قِراءَةِ

جُزْءٍ مِنْ أسْفَلِ الصَّفْحَةِ ، وَهُوَ : « سَيِّدي ، أتَوَسَّلُ إلَيْكَ ، أنْتَ سَيِّدٌ فاضِلٌ ، أنْ تُحْرِقَ هَذا الخِطابَ ، وَلَكِنِ احْضُرْ عِنْدَ البَوّابَةِ في السّاعَةِ العاشِرَةِ.» وَتَحْتَ هَذا كانَ الحَرْفانِ : ل . ل ».

« ألَدَيْكَ أيَّةُ فِكْرَةٍ عَمَّنْ تَكونُ ل . ل ؟ »

« لا أكْثَرَ مِمّا عِنْدَكَ ، يا سَيِّدي ».

وَعِنْدَما تَرَكَنا الخادِمُ الْتَفَتَ إلَيَّ سِير هنري قائِلاً : « حَسَنٌ ، يا واطْسُن . ماذا تَرى في ذَلِكَ ؟ »

« إذا تَتَبَّعْنا « ل . ل » فَإنَّها سَتُوَضِّحُ لَنا الحَقائِقَ ، وَسَوْفَ نُخْبِرُ هولمز بِذَلِكَ سَريعاً ! وَسَأكونُ مُخْطِئاً إنْ لَمْ يَصِلْهُ ذَلِكَ المَوْضوعُ في لَنْدَن ».

السّابِعَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ أكْتوبر . يَنْهَمِرُ المَطَرُ طَوالَ اليَوْمِ ، وَيَضْرِبُ في شُجَيْراتِ اللَّبْلابِ ، وَلَمْ يَبْرَحْ خَيالي ذَلِكَ السَّجينُ الهارِبُ عَلى المُسْتَنْقَعِ . ثُمَّ دارَ بِخَلَدي ذَلِكَ الوَجْهُ الآخَرُ – الَّذي أطَلَّ مِنَ العَرَبَةِ ، وَاسْوِدادُ الَّذي انْعَكَسَ عَلَيْهِ القَمَرُ ، أكانَ ذَلِكَ المُراقِبُ غَيْرُ المَرْئِيِّ خارِجاً في العاصِفَةِ المُمْطِرَةِ ؟

لَمْ يَكُنْ يَنْقَضي يَوْمٌ دونَ أنْ يَحْضُرَ الدُّكْتور مورتيمر لِيَرى

مدى تقدمنا في عملنا .

قلت : « بهذه المناسبة ، يا مورتيمر ، يخيل إلي أنه يعيش بالقرب منا قلة من الناس أنت لا تعرفهم أ تستطيع أن تمدني ببيانات عن امرأة يبدأ اسمها بـ« ل . ل » ؟»

« حسنا ، هنالك لاورا ليونز ، الحرفان الأولان من اسمها هما ل . ل ، لكنها تعيش في كومب تريسي ، وقد تزوجت من رسام جاء ليصور لوحات على المستنقع ، وقد ذهب وهجرها ، وأبى أبوها أن يمد لها يد المساعدة ، لأنها تزوجت بدون موافقته. وبذلك مرت بها سنون عصيبة ، لكن قصتها شاعت بين الناس ، وتقدم بعضهم لعمل شيء لمساعدتها على كسب قوت يومها، وكان ستيبلتن وسير تشارلز من بين هؤلاء ، وعرضت أنا عليها شيئا ؛ وهو أن تعمل في محل تجاري كاتبة آلة كاتبة .»

بقي مورتيمر للعشاء معا ، وبدأ هو وسير هنري يلعبان الورق بعد ذلك ، أما أنا فقد أحضر لي الخادم فنجان قهوتي في المكتبة .

قلت له : « حسن . هل ارتحل قريبك ذاك ، أم أنه لا يزال

مختبئا هناك ؟»

« لست أدري ، يا سيدي ، فلم أسمع عنه شيئا منذ تركت له الطعام آخر مرة منذ ثلاثة أيام . وقد اختفى الطعام عندما ذهبت إليه آخر مرة .»

« إذا ، فقد كان هناك ، يقينا .»

« هذا ما عساك تراه ، يا سيدي ، ما لم يكن الذي أخذه هو الرجل الآخر .»

وحلست وفنجان قهوتي في نصف الطريق إلى شفتي ، ونظرت إلى باريمور دهشا .

« نعم ، يا سيدي ، إن على المستنقع رجلا آخر . وقد أخبرني عنه سيلدن منذ أسبوع مضى ، بيد أنه ليس سجينا هاربا . إني لا أحب أمثال هذه الأمور . أي دكتور واطسن ، تفكر في ذلك الغريب الذي يرقب ويترصد ! ماذا ينتظر ؟ وما معنى ذلك ؟ إنه لا يعني السلامة لأي شخص يحمل اسم باسكرفيل .»

« وماذا قال سيلدن عن ذلك الغريب ؟ وهل اكتشف ما

كانَ يَفْعَلُهُ ؟»

« بادِئَ ذي بَدْءٍ ، خُيِّلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ مِنْ رِجالِ الشُّرْطَةِ ، لَكِنَّهُ اكْتَشَفَ أَنَّهُ كانَ لَدَيْهِ خُطَّةٌ مِنْ تَدْبيرِهِ هُوَ ».

« وَماذا قالَ سيلدن عَنْ مَسْكَنِهِ ؟»

« بَيْنَ المَنازِلِ القَديمَةِ عَلى جانِبِ التَّلِّ – الأَكْواخِ الحَجَرِيَّةِ – حَيْثُ اعْتادَ النّاسُ الأَقْدَمونَ أَنْ يَعيشوا ».

عِنْدَما مَضى الخادِمُ رُحْتُ أَتَمَشّى قَبْلَ النّافِذَةِ السَّوْداءِ ، وَرُحْتُ أَتَطَلَّعُ إِلى السُّحُبِ المُسْرِعَةِ وَالأَغْصانِ المُتَمَوِّجَةِ . إِنَّها لَيْلَةٌ موحِشَةٌ في داخِلِ الدُّورِ ، فَماذا تَكونُ في كوخٍ حَجَرِيٍّ حَطيمٍ قابِعٍ عَلى المُسْتَنْقَعِ ؟ وَأَيَّةُ بَغْضاءَ مَريرَةٍ تَحْدو بِالمَرْءِ إِلى أَنْ يَبْقى في مِثْلِ هَذا المَكانِ وَتِلْكَ السّاعَةِ ؟ هُنالِكَ في ذَلِكَ الكوخِ الواقِعِ عَلى المُسْتَنْقَعِ ، لا مَناصَ مِنْ أَنَّهُ يَكْمُنُ ثِقَلُ المُشْكِلَةِ الَّتي جَثَمَتْ عَلَيَّ بِذَلِكَ العُمْقِ ، وَإِنّي لَأُقْسِمُ إِنَّهُ لَنْ يَمُرَّ يَوْمٌ دونَ أَنْ أَفْعَلَ كُلَّ ما يَسْتَطيعُ ذَلِكَ الرَّجُلُ أَنْ يَفْعَلَهُ ؛ لِلْوُصولِ إِلى قَلْبِ السِّرِّ .

الفَصْلُ الحادِيَ عَشَرَ

أَوْصَلَني الجُزْءُ ، مِنْ مُفَكِّرَتي الخاصَّةِ ، الَّذي يَمْلَأُ الصَّفَحاتِ القَليلَةَ الأَخيرَةَ ، إِلى قِصَّتي حَتّى الثّامِنَ عَشَرَ مِنْ شَهْرِ أُكْتوبر . وَأَحْداثُ اليَوْمِ التّالي واضِحَةٌ أَشَدَّ الوُضوحِ في ذاكِرَتي .

لَمْ أَجِدْ أَيَّةَ مَشَقَّةٍ – في كومب تريسي – في العُثورِ عَلى مَكانِ السَّيِّدَةِ لبونر وَعِنْدَما دَخَلْتُ عَلَيْها كُنْتُ أَعْلَمُ أَنّي في حَضْرَةِ امْرَأَةٍ بارِعَةِ الحُسْنِ ، وَأَنَّها كانَتْ تَسْتَفْسِرُ مِنّي عَنْ سَبَبِ زِيارَتي ، وَلَمْ أُدْرِكْ تَمامًا حَتّى تِلْكَ الآوِنَةِ كَمْ كانَ مَوْقِفي حَرِجًا .

« جِئْتُ إِلى هُنا في مَسْأَلَةِ الفَقيدِ سير تشارلز باسكرفيل ».

« وَماذا عَسايَ أَقولُ لَكَ بِصَدَدِهِ ؟»

كانَ هَذا سُؤالَها وَهِيَ تَعْبَثُ في قَلَقٍ بِمَفاتيحِ آلَتِها الكاتِبَةِ

« هَلْ كَتَبْتِ لِسِير تشارلز تَسْأَلِينَهُ مُقَابَلَتَكِ ؟»

قالَتْ وَقَدْ ثارَ الدَّمُ في وَجْهِها : « يَقيناً لَمْ يَحْدُثْ هَذا !»

« يَقيناً أَنَّ ذاكِرَتَكِ تَخونُكِ ! إِنَّني أَذْكُرُ بَعْضَ كَلِماتِكِ : «« أَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ وَأُكَرِّرُ ، وَأَنْتَ امْرُؤٌ فاضِلٌ ، أَنْ تُحْرِقَ هَذا الخِطابَ ، وَلَكِنْ عِنْدَ البَوَّابَةِ في السّاعَةِ العاشِرَةِ .»» »

« نَعَمْ ، أَنا كَتَبْتُ ذَلِكَ .»

ثُمَّ أَنْشَأَتْ تَبْكي وَهِيَ تَصُبُّ روحَها في سَيْلٍ مِنَ الكَلِماتِ. « كَتَبْتُهُ فِعْلاً ، وَفيمَ ادِّعائي ؟ فَلا مَدْعاةَ لِخَجَلي ، فَلَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّني إِنْ قابَلْتُهُ فَقَدْ أَظْفَرُ بِمُساعَدَتِهِ ؛ وَلِذَلِكَ طَلَبْتُ أَنْ أُقابِلَهُ في مَمَرِّ أَشْجارِ السَّرْوِ .»

« وَلِماذا في ذَلِكَ الوَقْتِ بِعَيْنِهِ ؟»

« لأَنَّني وَقْتَها عَلِمْتُ أَنَّهُ كانَ في سَبيلِهِ إِلى لَنْدَن في اليَوْمِ التّالي ، وَأَنَّهُ قَدْ يَتَغَيَّبُ شُهوراً .»

« وَماذا حَدَثَ عِنْدَما ذَهَبْتِ إِلى هُناكَ ؟»

« لَمْ أَذْهَبْ إِلى هُناكَ أَلْبَتَّةَ ؛ فَقَدْ وَقَعَ ما حالَ بَيْني وَبَيْنَ ذَلِكَ .»

« هَلْ تَعْتَرِفينَ ، إِذاً ، أَنَّكِ قَدْ ضَرَبْتِ مَوْعِداً مَعَ سِير تشارلز في ذاتِ اللَّحْظَةِ وَالمَكانِ حَيْثُ لَقِيَ مَصْرَعَهُ ، وَلَكِنْ تَدَّعينَ أَنَّكِ لَمْ تَفي بِوَعْدِكِ إِطْلاقاً ؟»

« إِنَّها الحَقيقَةُ .»

« إِنْ لَمْ تَكوني مُذْنِبَةً ، فَبِماذا قُلْتِ أَوَّلاً إِنَّكِ لَمْ تَكْتُبي لِسِير تشارلز ؟»

« لأَنَّني خَشيتُ أَلا تُفْهَمَ المَسْأَلَةُ عَلى حَقيقَتِها ؛ وَمِنْ ثَمَّ تَهْتَزُّ سُمْعَتي .»

« وَلِماذا كُنْتِ تَوّاقَةً إِلى أَنْ يُحْرِقَ سِير تشارلز خِطابَكِ ؟»

« حَياتي كُلُّها مُعاناةٌ مِنْ زَوْجٍ لا أُحِبُّهُ ، وَالقانونُ في جانِبِهِ ، وَهُناكَ في كُلِّ يَوْمٍ احْتِمالٌ أَنْ يَحْمِلَني عَلى العَيْشِ مَعَهُ . وَعِنْدَما كَتَبْتُ لِسِير تشارلز كُنْتُ قَدْ عَرَفْتُ أَنَّني قَدْ أَظْفَرُ بِحُرِّيَّتي إِذا أَمْكَنَني أَداءُ مَبْلَغٍ مُعَيَّنٍ مِنَ المالِ لَهُ ، وَكانَ هَذا مُبْتَغايَ . وَعَرَفْتُ مِقْدارَ شَفَقَةِ سِير تشارلز ، وَخُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّهُ إِذا سَمِعَ بِحِكايَتي مِنْ بَيْنِ شَفَتَيَّ فَسَوْفَ يَمُدُّ لي يَدَ العَوْنِ .»

« لِماذا إِذاً لَمْ تَذْهَبي ؟»

« لأنّني في اللّحْظَةِ نفْسِها تلقّيْتُ مُساعدةً مِنْ شخْصٍ آخَرَ.»

« لِماذا إذاً - لَمْ تَكتُبي لِسير تشارلز ، وتُوَضّحي لهُ هَذِهِ المَسْألَةَ ؟»

« كانَ مِنَ الجائِزِ أنْ أفْعَلَ ، لوْلا أنّي قَرَأتُ في الصّحيفَةِ ، في الصّباحِ التّالي ، خَبَراً عَنْ مَصْرَعِهِ.»

قِصّةُ تِلْكَ المرْأةِ كانَتْ مَعْقولَةً ، وَلَمْ يَسْتَطِعْ كُلُّ ما وَجّهْتُ إليْها مِنْ أسْئِلَةٍ أنْ يَهُزَّ تِلْكَ القِصّةَ . لَعَلّها كانَتْ تَقولُ الحَقيقَةَ ، أوْ على الأقَلِّ جُزْءاً مِنَ الحَقيقَةِ .

وَبَلَغْتُ مَرّةً أخْرى ذَلِكَ الجِدارَ الّذي بَدا كأنّهُ يُبَيّ عَبْرَ كُلِّ مَمَرٍّ مِنِ اسْتِجْوابَاتي ، وَقَدْ فَلَّ مِنْ عَزيمَتي عِنْدَما شَرَعْتُ في العَوْدَةِ .

واتّخَذْتُ الطّريقَ بادِئَ ذي بَدْءٍ ، ثُمّ عَرّجْتُ خارِجاً مِنْهُ إلى المُسْتَنْقَعِ ، وَقَدْ تأهّبَتِ الشّمْسُ لِلْمَغيبِ ، عِنْدَما بَلَغْتُ رَأسَ التّلِّ ، حَيْثُ كانَتِ المُنْحَدَراتُ الطّويلَةُ مِنْ تَحْتي كُلُّها خَضْراءَ ، يُمَوّهُها الذّهَبُ عَلى جانِبٍ مِنْها ، وَظِلالٌ رَمادِيّةٌ عَلى الجانِبِ الآخَرِ . وَمِنْ تَحْتي في مُنْحَدَرٍ في التِّلالِ شاهَدْتُ دائِرَةً مِنَ الأكْواخِ الحَجَرِيّةِ ، وَكانَ لأحَدِها سَقْفٌ يَكْفي لِيَكونَ مَلاذاً

مِنَ الطّقْسِ ، وَقَدْ أفْضى طَريقٌ بَيْنَ الصُّخورِ إلى الفُتْحَةِ الخَرِبَةِ وَقَدْ خَيّمَ السُّكونُ عَلى المَكانِ كُلِّهِ . لَعَلّ الرّجُلَ المَجْهولَ مُخْتَبِئٌ هُناكَ ، أوْ لَعَلّهُ يَتَحَرّكُ هُنا وَهُناكَ فَوْقَ المُسْتَنْقَعِ . وارْتَعَدْتُ فَرَقاً ، ثُمّ ألْقَيْتُ بِسيجارَتي بَعيداً ، وَأحْكَمْتُ قَبْضَتي حَوْلَ مِقْبَضِ مُسَدّسي ، وَرُحْتُ أهَرْوِلُ ناحِيَةَ المَدْخَلِ ، وَتَطَلّعْتُ في الدّاخِلِ فَما وَجَدْتُ إلا خَواءً .



على أنّ ذلكَ – يقيناً – كانَ المكانَ الّذي فيهِ الرَّجُلُ ؛ فَقَدْ كانَ ثمّةَ كوماتٌ مِنَ الرَّمادِ في المِدْفأةِ ، وَقَدْ دَلَّتْ عُلَبُ الطَّعامِ المحفوظِ على أنَّ الكوخَ كانَ مسكوناً فترةً ليستْ بالقصيرةِ ، وأقسمتُ جهدَ يميني ألا أريمَ ولا أبرحَ حتّى أعرفَ مَنْ كانَ ذلكَ الرَّجُلُ . وكانتِ الشَّمْسُ خارجَ المكانِ تغرقُ إلى أسفلَ ، والجهةُ الغربيّةُ تألّقتْ بالشَّفقِ والذَّهبِ ، فجلستُ في الظّلامِ داخلَ الكوخِ أترقّبُ .

وأخيراً سمعتُهُ ؛ إذْ جاءَ مِنْ أقصى المكانِ طَرْقُ حذاءٍ يضربُ الحجرَ ، ثُمَّ صوتٌ آخرُ يدنو رُوَيْداً رُوَيْداً ؛ فاختبأتُ في أشدِّ الأركانِ حُلْكةً ، ومُسدَّسي في قبضتي ، عاقداً العزمَ ألا أُظهِرَ نفسي حتّى أرى شيئاً مِنَ الغريبِ . وأعقبَ ذلكَ سكونٌ طويلٌ ؛ دليلاً على أنَّهُ توقّفَ عنِ السّيرِ ، وبعدَ ذلكَ اقتربتْ خطواتُ الأقدامِ ، ثُمَّ سقطَ ظِلٌّ على مَدْخَلِ الكوخِ .

وقالَ صوتٌ معروفٌ لي تمامَ المعرفةِ : « ليلةٌ بديعةٌ ، يا سيِّدُ واطسن . أعتقدُ حقيقةً أنّكَ تكونُ أكثرَ راحةً خارجَ المكانِ عَنْ داخلِهِ ».

الفَصْلُ الثّاني عَشَرَ

جلستُ هُنَيْهةً مَبْهورَ النَّفَسِ ، أكادُ لا أُصدِّقُ مِسْمعي ، ثُمَّ عادتْ إليَّ حواسّي وصوتي ، وقلتُ كمَنْ يصرخُ : « هولمز ! إنَّكَ هولمز ! »

قالَ : « أُخرُجْ . ومِنْ فضلِكَ كُنْ حريصاً معَ المسدَّسِ ! »

وجلسَ هناكَ على صخرةٍ خارجَ الكوخِ ، وعيناهُ تحفلانِ بالمسرَّةِ وهُما تُحمْلِقانِ إلى وجهيَ الدَّهِشِ .

قلتُ وأنا أشُدُّ على يدِهِ : « لَمْ أسعدْ في حياتي لِرُؤيةِ امرئٍ مِثْلَ هذهِ السَّعادةِ ».

« بلْ وبالدَّهشةِ أيضاً ! المفاجأةُ لَمْ تكنْ في جانبِكَ أنتَ وحدَكَ. دعني أخبرْكَ : لَمْ يدُرْ بِرأسي قطُّ أنْ تكونَ معي في مخبئي نفسِهِ أوْ حتّى أنْ تعثرَ عليهِ ، حتّى كُنْتُ على بُعْدِ عشرينَ متراً مِنَ المدخلِ ».

« مِنْ وَقْعِ أَقْدامي ، كَما أَعْتَقِدُ ».

« كَلّا ، يا واطْسُن ، إِنَّني حَتّى لَمْ أَكُنْ عَلى ثِقَةٍ بِمَعْرِفَةِ خُطُواتِكَ مِنْ بَيْنِ كُلِّ خُطُواتِ الأَقْدامِ في العالَمِ ! إِذا كُنْتَ جاداً في الرَّغْبَةِ في خِداعي فَعَلَيْكَ أَنْ تُغَيِّرَ سَجائِرَكَ المُفَضَّلَةَ ؛ لأَنَّني عِنْدَما أَرى عُقْبَ سيجارَةٍ مَكْتوباً عَلَيْهِ « برادلي ، شارِع أوكسفورد » أَعْرِفُ أَنَّ صَديقي واطْسُن مَوْجودٌ في المَكانِ المُجاوِرِ . وَلَقَدْ أَلْقَيْتَ بِها ، بِدونِ أَدْنى شَكٍّ ، في تِلْكَ اللَّحْظَةِ الَّتي هَجَمْتَ فيها داخِلاً الكوخ ! وَبِهَذا كُنْتَ ، حَقيقَةً ، تَظُنُّ في شَخْصي ذَلِكَ المُجْرِمَ !»

« لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ مَنْ تَكونُ ، لَكِنَّني كُنْتُ مُصَمِّماً عَلى البَحْثِ وَالتَّقَصّي ».

« رائِعٌ ، يا واطْسُن ! رُبَّما رَأَيْتَني عَشِيَّةَ كُنْتَ تُحاوِلُ اصْطِيادَ ذَلِكَ المُجْرِمِ ، عِنْدَما كُنْتُ مِنَ الغَباءِ بِحَيْثُ جَعَلْتُ القَمَرَ خَلْفي ؟»

« نَعَمْ ، رَأَيْتُكَ عِنْدَئِذٍ وَلَكِنْ كَيْفَ وَصَلْتَ إِلى هُنا ؟ لَقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّكَ في شارِعِ بيكر ».

« هَذا ما أَرَدْتُ أَنْ أُدْخِلَهُ في رُوعِكَ . فَإِذا كُنْتُ مَعَكَ وَمَعَ سير هنري ؛ فَإِنَّ حُضوري كانَ سَيُنَبِّهُ الأَعْداءَ لِيَكونوا عَلى حَذَرٍ، وَكَما حَدَثَ ، كُنْتُ قادِراً عَلى التَّحَرُّكِ هُنا وَهُناكَ بِحُرِّيَّةٍ أَكْثَرَ مِمّا كُنْتُ أَفْعَلُ لَوْ كُنْتُ مَوْجوداً في القَصْرِ ».

« إِذاً ، باتَتْ تَقاريري كَأَنْ لَمْ تَكُنْ !»

وَسُرْعانَ ما أَخْرَجَ هولمز رِزْمَةً مِنَ الأَوْراقِ مِنْ جَيْبِهِ ، وَهُوَ يَقولُ: « ها هِيَ ذي تَقاريرُكَ أَيُّها الرَّفيقُ العَزيزُ ، لَقَدْ دَرَسْتُ بِأَقْصى عِنايَةٍ . وَالآنَ أَخْبِرْني بِنَتيجَةِ زِيارَتِكَ لِلسَّيِّدَةِ لورا ليونز . إِنَّهُ لَيْسَ بِالأَمْرِ الصَّعْبِ أَنْ أُخَمِّنَ أَنَّها كانَتِ الشَّخْصَ الَّذي ذَهَبْتَ لِتَراهُ في كومب تريسي ».

أَطْلَعْتُ هولمز عَلى الحَديثِ الَّذي دارَ بَيْني وَبَيْنَ تِلْكَ السَّيِّدَةِ، فَقالَ : « هَذا عَلى أَكْبَرِ جانِبٍ مِنَ الأَهَمِّيَّةِ ؛ فَهُوَ يَملأُ الفَجْوَةَ الَّتي عَجَزْتُ عَنْ تَجاوُزِها في هَذِهِ المُشْكِلَةِ العَسيرَةِ . هَلْ تَعْرِفُ أَنَّ ثَمَّةَ عَلاقَةً مَتينَةً بَيْنَ تِلْكَ السَّيِّدَةِ وَستيبلتن ؟ وَالآنَ يَضَعُ هَذا سِلاحاً ماضِياً في أَيْدينا . لَيْتَني أَسْتَخْدِمُهُ في فَصْلِ هَذا الرَّجُلِ عَنْ زَوْجَتِهِ ...»

« زَوْجَتُهُ ؟»

« إنّي مُعْطيكَ بَعْضَ المَعْلوماتِ الآنَ مُقابِلَ ما أَعْطَيْتَنيهِ : السَّيِّدَةُ الّتي يَدْعوها بِالآنِسَةِ ستيبلتن ، هِيَ في الواقِعِ زَوْجَتُهُ .»

« يا للهِ ، يا هولمز ! أ أنْتَ عَلى ثِقَةٍ مِنْ ذَلِكَ ؟ فَكَيْفَ إذاً سَمَحَ لِسير هنري أَنْ يَقَعَ في حُبِّها ؟»

« هَذا لا يَتَرَتَّبُ عَلَيْهِ أذًى لأَحَدٍ إلا لِسير هنري . وَقَدْ كانَ ستيبلتن جِدَّ حَريصٍ عَلى ألا يُغازِلَها سير هنري كَما رَأَيْتَ أَنْتَ نَفْسُكَ . وَأَعودُ فَأُكَرِّرُ أَنَّ السَّيِّدَةَ هِيَ زَوْجَتُهُ ، لا شَقيقَتُهُ .»

« وَلَكِنْ لِماذا كانَ مُخادِعاً إلى هَذا الحَدِّ ؟»

« لأَنَّهُ خُيِّلَ إلَيْهِ أَنَّها سَوْفَ تَكونُ أَكْثَرَ نَفْعاً لَهُ إنْ ظُنَّ أَنَّها امْرَأَةٌ غَيْرُ مُتَزَوِّجَةٍ .»

لَقَدْ تَشَكَّلَتْ كُلُّ الرِّيَبِ المَكْبوتَةِ عِنْدي فَجْأَةً ، وَتَرَكَّزَتْ عَلى ذَلِكَ العالِمِ الطَّبيعِيِّ – ذَلِكَ الرَّجُلِ غَيْرِ المَحْبوبِ بِقُبَّعَتِهِ القَشِّ وَبِشَبَكَتِهِ . وَبَدَأْتُ أَرى شَيْئاً مُرْعِباً يُحْسَبُ لَهُ أَلْفُ حِسابٍ: مَخْلوقٌ في صَبْرِهِ وَذَكائِهِ غَيْرِ المَحْدودِ وَمُحَيّاهُ البَسّامِ وَقَلْبِهِ القَتّالِ . قُلْتُ : « أ موقِنٌ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ ، يا هولمز ؟ وَكَيْفَ

عَرَفْتَ أَنَّ المَرْأَةَ زَوْجَتُهُ ؟»

« لأَنَّهُ أَخْبَرَكَ بِشَيْءٍ حَقيقِيٍّ عَنْ حَياتِهِ عِنْدَما قابَلَكَ أَوَّلَ مَرَّةٍ . وَأَتَحاسَرُ وَأَقولُ إنَّهُ نَدِمَ وَلا يَزالُ مُنْذُ تِلْكَ الآوِنَةِ ، وَلَيْسَ أَيْسَرَ – لِلْحُصولِ عَلى مَعْلوماتٍ عَنْ شَخْصٍ ما – مِنْ أَنْ يَكونَ ذَلِكَ الشَّخْصُ مُدَرِّساً . وَثَمَّةَ وَكالاتُ تَوْظيفٍ تُسَجِّلُ حالَةَ كُلِّ امْرِئٍ يَعْمَلُ في هَذا الحَقْلِ ؛ وَبِاسْتِقْراءٍ بَسيطٍ تَبَيَّنَ لي أَنَّ إحْدى المَدارِسِ أَغْلَقَتْ أَبْوابَها ، وَأَنَّ الرَّجُلَ الَّذي يَمْلِكُ تِلْكَ المَدْرَسَةَ – وَاسْمُهُ مُخالِفٌ لاسْمِ صاحِبِنا – قَدِ اخْتَفى وَمَعَهُ زَوْجَتُهُ ، وَقَدْ تَطابَقَتْ أَوْصافُهُما . وَعِنْدَما نَمى إلى عِلْمي أَنَّ الرَّجُلَ المُخْتَفِيَ كانَ عالِمَ طَبيعَةٍ ؛ كُنْتُ عَلى ثِقَةٍ بِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ سِوى ستيبلتن .»

سَأَلْتُهُ : « إذا كانَتْ تِلْكَ السَّيِّدَةُ حَقيقَةً – زَوْجَتَهُ ، فَأَيْنَ ظَهَرَتِ السَّيِّدَةُ لورا ليونز ؟»

« هَذِهِ إحْدى النِّقاطِ الَّتي أَلْقَتِ اسْتِطْلاعاتُكَ ضَوْءاً عَلَيْها ، وَلَمْ أَعْرِفْ أَنَّها كانَتْ تُخَطِّطُ لِلطَّلاقِ مِنْ زَوْجِها ، وَفي تِلْكَ الحالَةِ كانَ يَحْدوها الأَمَلُ – وَقَدْ ظَنَّتْ أَنَّ ستيبلتن لَمْ يَكُنْ مُتَزَوِّجاً – أَنْ تُصْبِحَ زَوْجَةً لَهُ .»

« وَعِنْدَما تَعْرِفُ الحَقيقَةَ ؟»

« وَفيمَ السُّؤالُ ؟ إذَنْ نَجِدَ السَّيِّدَةَ أَكْثَرَ عَوْناً لَنا !»

« سُؤالٌ أَخيرٌ ، يا هولمز ، ما مَعْنى كُلُّ ذَلِكَ ؟»

وَانْخَفَضَ صَوْتُ هولمز انْخِفاضاً شَديداً وَهُوَ يُجيبُ : « إنَّها جَريمَةُ قَتْلٍ ، يا واطْسُن ، عَمْداً مَعَ سَبْقِ الإصْرارِ . وَلَيْسَ هُناكَ مِنَ الأَخْطارِ إلا خَطَرٌ واحِدٌ يَتَهَدَّدُنا ، وَهُوَ أَنَّ ستيبلتن قَدْ يَضْرِبُ ضَرْبَتَهُ قَبْلَ أَنْ نَكونَ مُسْتَعِدّينَ لِتَوْجيهِ ضَرْبَتِنا . وَيَوْماً ما سَتَكونُ قَضِيَّتي قَدِ اكْتَمَلَتْ ، وَحَتّى يَتِمَّ ذَلِكَ فَإنَّ عَلَيْكَ مُهِمَّةَ حِراسَةِ سِير هنري عَنْ كَثَبٍ . أَنْصِتْ !»

وَاخْتَرَقَتْ جَوْفَ السُّكونِ في المُسْتَنْقَعِ صَرْخَةٌ مُرْعِبَةٌ ، جَمَّدَتِ الدَّمَ في عُروقي . أَمّا هولمز ، فَقَدْ قَفَزَ على قَدَمَيْهِ هامِساً وَصَوْتُهُ يَرْتَجِفُ : « ما هَذا ؟»

وَتَبَيَّنَ لي أَنَّ هَذا الرَّجُلَ ذا الإرادَةِ الحَديدِيَّةِ، قَدِ اهْتَزَّ حَتّى النُّخاعِ !

وَمَرَّةً ثانِيَةً اجْتاحَتِ الصَّرْخَةُ المُرْعِبَةُ وَأَوْغَلَتْ في سُكونِ اللَّيْلِ ، وَزادَ ارْتِفاعُها وَاقْتِرابُها شَيْئاً فَشَيْئاً ؛ وَقَدْ صاحَبَها

صَوْتٌ آخَرُ عَميقٌ ، مُتَوَعِّدٌ ، يَتَذَبْذَبُ ارْتِفاعاً وانْخِفاضاً كَهَديرِ البَحْرِ . صاحَ هولمز . « الكَلْبُ ! هَلُمَّ ، يا واطْسُن ، هَلُمَّ ! أَعوذُ بِاللهِ ! إذا جَنَّ عَلَيْنا اللَّيْلُ ... »

وَرُحْنا نَعْدو بِسُرْعَةٍ عَلى المُسْتَنْقَعِ ، لكِنَّهُ ، مِنْ مَكانٍ ما عَلى الأَرْضِ الوَعْرَةِ ، انْبَعَثَتْ صَرْخَةٌ يائِسَةٌ ، وَلَمْ نُتْبَعْ بِغَيْرِها ، لِتُمَزِّقَ حُجُبَ اللَّيْلِ .

« لَقَدِ انْتَصَرَ عَلَيْنا ، يا واطْسُن . لَقَدْ تَأَخَّرْنا كَثيراً ».

« لا ، لا . يَقيناً كَلا !»

« كُنْتُ مِنَ الغَباءِ بِمَكانٍ حينَ تَأَخَّرْتُ ! وَلَكِنْ ، بِحَقِّ السَّماءِ، إذا وَقَعَ مَكْروهٌ ، فَلَنْ يَكونَ سِوى الانْتِقامِ !»

وَرُحْنا نَعْدو مُهَرْوِلَيْنِ في الظَّلامِ ، نَتَساقَطُ فَوْقَ الصُّخورِ ، وَنَشُقُّ طَريقَنا عَبْرَ الشُّجَيْراتِ ، مُجاهِدَيْنِ في صُعودِ التِّلالِ ، وَمُنْدَفِعَيْنِ في هُبوطِ المُنْحَدِراتِ ، في اتِّجاهِ مَصْدَرِ تِلْكَ الصَّيْحاتِ المُرْعِبَةِ ، وَعَنْ شِمالِنا كانَتْ جُروفٌ صَخْرِيَّةٌ ، وَكانَ مُبَعْثَراً عَلى المُنْحَدَرِ مِنْ تَحْتِنا أَحْجارٌ كَثيرَةٌ . وَعَلى ذَلِكَ المُنْحَدَرِ بَدا لَنا شَيْءٌ غَريبٌ أَسْوَدُ ؟ وَإذْ عَدَوْنا قِبَلَ ذَلِكَ الشَّيْءِ تَبَيَّنَ لَنا أَنَّهُ رَجُلٌ

راقدٌ وَ وَجْهُهُ إلى أسْفَلُ على الأرْضِ ، وَرأسُهُ مَعْقوفٌ تَحْتَهُ بِزاوِيَةٍ غَيْرِ طَبيعِيَّةٍ . وَضَعَ هولمز يَدَهُ عَلى الرَّجُلِ ثُمَّ رَفَعَها ثانِيَةً ، وَقَدْ سَطَعَ ضَوْءُ عودِ الثِّقابِ الَّذي أشْعَلَهُ عَلى أصابِعِ الرَّجُلِ المُحْمَرَّةِ ، وَعَلى بِرْكَةٍ مِنَ الدَّمِ طَلَّتْ تَتَكَوَّنُ بِبُطْءٍ مِنَ الدَّمِ الخارِجِ مِنَ الجُثَّةِ ، الَّتي تَبَيَّنَ أنَّها لِسير هنري باسكرفيل .

وَتَعَرَّفْنا عَلى سُتْرَتِهِ الَّتي يَميلُ لَوْنُها إلى الاحْمِرارِ ، وَكانَتْ بِعَيْنِها الَّتي ارْتَداها في أوَّلِ صَباحٍ رَأيْناهُ فيهِ في شارِعِ بيكر . وَلَمْ نَكَدْ نَلْمَحُهُ حَتّى انْطَفَأَ عودُ الثِّقابِ .

« الشَّيْطانُ ! الشَّيْطانُ ! وَيْلاهُ ! لَنْ أغْتَفِرَ لِنَفْسي أنّي تَرَكْتُ سير هنري باسكرفيل . وَلَكِنْ كَيْفَ لي أنْ أعْرِفَ أنَّهُ سَوْفَ يُجازِفُ بِحَياتِهِ وَحيداً عَلى المُسْتَنْقَعِ رَغْمَ كُلِّ تَحْذيراتي لَهُ ؟ إنَّ كِلا الرَّجُلَيْنِ – العَمَّ وَابْنَ أخيهِ – ماتا مَقْتولَيْنِ . أحَدُهُما قَتَلَهُ الرُّعْبُ مِنْ مُجَرَّدِ مَرْآى الحَيَوانِ ، أمّا الآخَرُ فَقَدِ اقْتيدَ إلى حَتْفِهِ في هَرَبِهِ مِنْ ذَلِكَ الحَيَوانِ . لَكِنْ عَلَيْنا أنْ نَرْبِطَ بَيْنَ ستيبلتن وَالحَيَوانِ . إنّا لَنْ نَسْتَطيعَ الجَزْمَ بِوُجودِ ذَلِكَ الكَلْبِ ؛ لأنَّ [illegible] هنري قَدْ نَجَمَ عَنْ سُقوطِهِ عَلى تِلْكَ الصُّخورِ ، لَكِنَّ مجرِم مهْما يُؤْتَ مِنْ ذَكاءٍ فَسَوْفَ يَسْقُطُ في قَبْضَتي قَبْلَ

أنْ يَنْصَرِمَ يَوْمٌ آخَرُ ».

وَعُدْتُ فَنَظَرْتُ إلى الجُثَّةِ ، وَأهاجَ مَنْظَرُ تِلْكَ الأعْضاءِ المُعْوَجَّةِ دُموعي ، وَقُلْتُ لِصاحِبي : « يَتَعَيَّنُ عَلَيْنا أنْ نَبْعَثَ في طَلَبِ النَّجْدَةِ ، يا هولمز ! فَلَنْ نَسْتَطيعَ حَمْلَهُ طَوالَ الطَّريقِ إلى القَصْرِ . لُطْفَكَ يا رَبُّ ! هَلْ جُنِنْتَ ، يا رَجُلُ ؟ »

وَكانَ هولمز في تِلْكَ اللَّحْظَةِ قَدْ مالَ عَلى الجُثَّةِ ، وَسَرْعانَ ما راحَ يَرْقُصُ وَيُقَهْقِهُ وَيَشُدُّ عَلى يَدي ، وَهُوَ يَصيحُ : « لِحْيَةٌ ! لِحْيَةٌ ! إنَّ لِلرَّجُلِ لِحْيَةً ! فَما هُوَ بِسير هنري ! إنَّهُ ... »

« لا تُكْمِلْ ، إنَّهُ السَّجينُ الهارِبُ ! »

وَبِسُرْعَةٍ قَلَبْنا الجَسَدَ ظَهْراً لِبَطْنٍ ؛ فَظَهَرَتْ لِحْيَةٌ مُخَضَّبَةٌ بِالدَّمِ ، وَتَيَقَّنْتُ أنَّ ذَلِكَ الوَجْهَ هُوَ نَفْسُهُ الوَجْهُ الَّذي كانَ يَرْمُقُني بِنَظَراتِهِ مِنْ فَوْقِ الضَّوْءِ البادي بَيْنَ الصُّخورِ – وَجْهُ المُجْرِمِ سيلدن . فَما هِيَ إلا لَحْظَةٌ واحِدَةٌ حَتّى أسْفَرَتْ لِيَ الحَقيقَةُ ، وَعادَ إلى ذاكِرَتي اليَوْمُ الَّذي أخْبَرَني فيهِ سير هنري أنَّهُ أعْطى بَعْضَ مَلابِسِهِ القَديمَةِ لِباريمور ، وَمِنْ ثَمَّ نَقَلَها باريمور لِمُساعَدَةِ سيلدن عَلى الهَرَبِ : حِذاءٌ طَويلٌ وَقُبَّعَةٌ وَسُتْرَةٌ مِنَ القُماشِ البُنِّيِّ اللَّوْنِ . كانَتْ كُلُّها مِنْ مُمْتَلَكاتِ سير

هنري .

« إذًا هذا ما ذَهَبَ بِذَلِكَ البائِسِ إلى حَتْفِهِ ! لَقَدْ جَعَلَ الكَلْبُ يتأثَّرُهُ عَنْ طَريقِ رائِحَةِ بَعْضِ مُتَعَلِّقاتِ سِير هنري ، وَلَعَلَّهُ كانَ ذَلِكَ الحِذاءَ الطَّويلَ الَّذي تَلَقّاهُ مِنَ الفُنْدُقِ ، وَبِذَلِكَ عَثَرَ الكَلْبُ على هَذا الرَّجُلِ .»

« وَلَكِنْ لِماذا أَطْلَقَ الكَلْبُ اللَّيْلَةَ مِنْ عِقالِهِ ؟ ما كانَ لِستيبلتن أَنْ يُطْلِقَهُ ما لَمْ يَجِدِ المُبَرِّرَ لِلظَّنِّ بِأَنَّ سِير هنري سَوْفَ يَكونُ هُناكَ .»

« مَرْحى ، يا واطْسُن ! ما هَذا ؟ إنَّهُ الرَّجُلُ بِنَفْسِهِ ! كَمْ هَذا رائِعٌ ! وَما مِنْ كَلِمَةٍ تَكْشِفُ عَنْ شُكوكِكَ ... »

كانَ شَبَحُ شَخْصٍ مُقْبِلاً نَحْوَنا عَلى المُسْتَنْقَعِ ، وَشاهَدْتُ النّورَ الباهِتَ مِنْ سيجارِهِ وَقَدْ تَأَلَّقَ ضَوْءُ القَمَرِ عَلى وَجْهِ ذَلِكَ الرَّجُلِ ؛ وَأَمْكَنَني التَّعَرُّفُ عَلَيْهِ ؛ لَقَدْ كانَ عالِمَ الطَّبيعَةِ . عِنْدَما وَقَعَ نَظَرُهُ عَلَيْنا تَوَقَّفَ ثُمَّ اسْتَأْنَفَ السَّيْرَ .

« دُكْتور واطْسُن ! أَلَيْسَ هَذا هُوَ أَنْتَ ؟ إنَّكَ آخِرُ مَنْ أَتَوَقَّعُ رُؤْيَتَهُ بِالخارِجِ عَلى المُسْتَنْقَعِ في هَذا الوَقْتِ مِنَ اللَّيْلِ . وَلَكِنْ

ما هَذا ؟ هَلْ أُصيبَ أَحَدٌ ؟ لا تُخْبِرْني أَنَّهُ صَديقُنا سِير هنري ؟»

وَهُرِعَ إِلَيَّ وَمالَ عَلى الجُثَّةِ ، وَتَرامى إلى سَمْعي نَفَسُهُ اللاهِثُ المُتَتابِعُ ، وَسَقَطَ السّيجارُ مِنْ بَيْنِ أَصابِعِهِ ، وَهَمَسَ : « مَنْ ! مَنْ هَذا ؟»

« إنَّهُ سيلدن ، الرَّجُلُ الَّذي هَرَبَ مِنْ برِنْستاون .»

وَأَقْبَلَ ستيبلتن عَلَيْنا بِوَجْهٍ شاحِبٍ ، بَيْدَ أَنَّهُ بِجَهْدٍ جَهيدٍ أَخْفى دَهْشَتَهُ وَخَيْبَةَ أَمَلِهِ ، وَنَقَلَ بَصَرَهُ بِسُرْعَةٍ مِنْ هولمز إِلَيَّ ، وَقالَ «أَلا ما أَقْطَعَها مِنْ مُهِمَّةٍ ! لَقَدْ سَمِعْتُ صَرَخاتٍ وَهَذا ما أَخْرَجَني ، وَلَمْ أَكُنْ مُطْمَئِنًّا عَلى سِير هنري .»

لَمْ يَسَعْني إلا أَنْ أَسْأَلَهُ : « وَلِماذا بِالنِّسْبَةِ لِسِير هنري عَلى وَجْهِ الخُصوصِ ؟»

« لأَنَّني اقْتَرَحْتُ أَنْ يَجيءَ لِيَرانا ، وَدَهِشْتُ حينَ لَمْ يَحْضُرْ. وَبِطَبيعَةِ الحالِ كُنْتُ قَلِقًا عَلى سَلامَتِهِ حينَ تَرامى إلى سَمْعي ذَلِكَ الصُّراخُ المُنْبَعِثُ مِنَ المُسْتَنْقَعِ . كَيْفَ تُفَسِّرُ مَوْتَ هَذا الشَّخْصِ البائِسِ ؟»

« لا رَيْبَ عِنْدي أَنَّ الخَوْفَ وَالبَرْدَ وَالجوعَ ، كُلُّ ذَلِكَ

أخرَجَهُ عَنْ جادَةِ الصَّوابِ . وَكانَ يَتجَوَّلُ هُنا وَهُناكَ عَلى المُسْتَنْقَعِ في يَأسٍ تامٍّ . وَفي النِّهايَةِ سَقَطَ عَلى الصَّخْرِ في ظُلْمَةِ اللَّيْلِ فَدُقَّ عُنُقُهُ ».

« وَماذا تَرى في ذَلِكَ ، يا سَيِّدُ شِرْلوك هولمز ؟»

اِنْحَنى صاحِبِي في أَدَبٍ ، وَقالَ : « لَقَدْ عَرَفْتَ مَنْ أنا بِسُرْعَةٍ ».

« كُنّا نَتَوَقَّعُ قُدومَكَ في الأماكِنِ المُجاوِرَةِ مُذْ جاءَنا الدُّكْتور واطْسُن ».

« أجَلْ ، وَلَيْسَ يُخامِرُني أدْنى شَكٍّ في أنَّ إيضاحَ صَديقي سَوْفَ يُغَطِّي كُلَّ الحَقائِقِ . وَإنّي لأَحْمِلُ مَعي ذِكْرى غَيْرَ مُسْتَحَبَّةٍ وَأنا عائِدٌ إلى لَنْدَن في الغَداةِ ».

« آهْ ! أأنْتَ عائِدٌ إلى لَنْدَن في الغَداةِ ؟ إنّي آمُلُ أنْ تُلْقِيَ زِيارَتُكَ بَعْضَ الضَّوْءِ عَلى الأحْداثِ الَّتي مَلأَتْنا بِالحَيْرَةِ ها هُنا ».

« إنَّكَ لَنْ تَسْتَطيعَ الظَّفَرَ بِما تَتَمَنّى ، فَعِنْدَ التَّحْقيقِ يَحْتاجُ المَرْءُ إلى حَقائِقَ وَلَيْسَ رَجْماً بِالغَيْبِ . إنَّها لَقَضِيَّةٌ غَيْرُ مُقْنِعَةٍ !»

لَقَدْ تَكَلَّمَ صاحِبي وَكَأنَّهُ لا يُهِمُّهُ الأمْرُ ، بَيْدَ أنَّ ستيبلتن لَمْ

يَزَلْ يَتَطَلَّعُ إلَيْهِ بِشَيْءٍ مِنَ الشَّكِّ ، ثُمَّ الْتَفَتَ إلَيَّ وَقالَ : « أرى أنْ أحْمِلَ هَذا التَّعِسَ إلى داري ، بَيْدَ أنَّ ذَلِكَ سَيُفْزِعُ شَقيقَتي ، وَبِذا لا أرى ذَلِكَ صَواباً ، وَأوثِرُ أنْ نَنْتَظِرَ حَتّى الصَّباحِ ».

وَهَكَذا بَدَأْنا السَّيْرَ أنا وَهولمز إلى قَصْرِ باسكرفيل . وَعِنْدَما نَظَرْنا وَراءَنا رَأيْنا ظِلَّ الرَّجُلِ ، الَّذي آلَ إلى مِثْلِ تِلْكَ الخاتِمَةِ المُفْجِعَةِ ، مُسْتَلْقِياً عَلى المُنْحَدَرِ الَّذي يَغْمُرُهُ ضِياءُ القَمَرِ ، أمّا ستيبلتن فَقَدِ اتَّجَهَ بَعيداً ، عَلى المُسْتَنْقَعِ العَريضِ .

قالَ هولمز : « ما أشَدَّ صَفاقَةَ هَذا الرَّجُلِ ! فَما أسْرَعَ ما أفاقَ مِنْ دَهْشَتِهِ ، عِنْدَما تَبَيَّنَ لَهُ أنَّ خُطَّتَهُ قَدْ قَتَلَتْ رَجُلاً آخَرَ عَلى غَيْرِ ما يُريدُ ! لَقَدْ قُلْتُ لَكَ في لَنْدَن وَأُكَرِّرُها الآنَ ، يا واطْسُن ، إنَّنا لَمْ نُصادِفْ أخْطَرَ مِنْ هَذا الرَّجُلِ ».

« وَلِماذا لا نَقْبِضُ عَلَيْهِ في الحالِ ؟»

« عَزيزي واطْسُن ، إنَّكَ وُلِدْتَ لِتَكونَ رَجُلاً ذا هِمَّةٍ ، وَمِنْ ثَمَّ تُريدُ دائِماً أنْ تَقومَ بِعَمَلٍ حاسِمٍ . نَحْنُ لا نَسْتَطيعُ إقامَةَ أيِّ دَليلٍ ضِدَّهُ ، وَلَيْسَ أمامَنا حَقائِقُ وَإنَّما مُجَرَّدُ تَخْميناتٍ ».

« هُناكَ مَقْتَلُ سير تشارلز ».

« وَجَدوهُ مَيِّتاً بِدونِ أيَّةِ عَلامَةٍ ، وَكِلانا يَعْرِفُ أنَّهُ ماتَ خَوْفاً،

وَنَعْرِفُ كَذلِكَ ما الَّذي أحاقَهُ ، وَلكِنْ كَيْفَ السَّبيلُ إلى إقْناعِ المَحْكَمَةِ بِما نَراهُ ؟ وَأَيَّةُ بَيِّنَةٍ هُناكَ تَدُلُّ عَلى وُجودِ كَلْبٍ ؟ وَأَيْنَ آثارُ مَخالِبِهِ ؟ وَنَحْنُ نَعْرِفُ ، بِطَبيعَةِ الحالِ ، أَنَّ كَلْبًا لا يَنْهَشُ جُثَّةً مَيِّتٍ ، وَأَنَّ سير تشارلز قَدْ قَضى نَحْبَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُدْرِكَهُ ذَلِكَ الكَلْبُ ، بَيْدَ أَنَّهُ يَتَعَيَّنُ عَلَيْنا إثْباتُ ذَلِكَ كُلِّهِ ، وَما ذَلِكَ في مُسْتَطاعِنا ؟»

« إذاً، ما بالُ هَذِهِ اللَّيْلَةِ ؟»

« لَيْسَتْ خَيْرًا مِنْ سَوابِقِها . نَحْنُ لَمْ نَرَ الكَلْبَ إطْلاقًا ، وَإنَّما سَمِعْناهُ ، وَلَمْ نَسْتَطِعِ البُرْهانَ عَلى أَنَّهُ كانَ يَقْتَفي أَثَرَ ذَلِكَ الرَّجُلِ . لا ، يا صَديقِي العَزيزَ ، يَنْبَغي الاعْتِرافُ بِحَقيقَةِ أَنَّنا لَيْسَ لَدَيْنا قَضِيَّةٌ الآنَ ، وَأَنَّ عَلَيْنا القِيامَ بِمُخاطَراتٍ لِخَلْقِ قَضِيَّةٍ . وَإنّي لَيَحْدوني كَبيرُ أَمَلٍ في أَنَّ السَّيِّدَةَ لورا ليونز سَتَفْعَلُ الكَثيرَ في هَذا الصَّدَدِ . وَلكِنْ ، كَلِمَةٌ أَخيرَةٌ ، يا واطْسُن ، لا تُخْبِرْ سير هنري بِأَيِّ شَيْءٍ عَنْ ذَلِكَ الكَلْبِ ، بَلْ دَعْهُ يَظُنُّ مَوْتَ سيلدن حَدَثَ كَما قُلْتَ . وَأَنا أَذْكُرُ أَنَّكَ ذَكَرْتَ لي في تَقْريرِكَ أَنَّهُ وَعَدَ بِأَنْ يَتَعَشّى مَعَ هَؤُلاءِ القَوْمِ مَساءَ الغَدِ .»

« أَجَلْ ، وَكَذَلِكَ أَنا .»

« عَلَيْكَ إذاً بِالاعْتِذارِ ، يا واطْسُن ! يَجِبُ أَنْ يَذْهَبَ بِمُفْرَدِهِ .»

الفَصْلُ الثّالِثَ عَشَرَ

كانَ سير هنري أَكْثَرَ ابْتِهاجًا مِنْهُ دَهَشًا حينَ رَأى شِرْلوك هولمز، لأَنَّهُ ظَلَّ بِضْعَةَ أَيّامٍ مُتَوَقِّعًا أَنَّ الأَحْداثَ الأَخيرَةَ سَوْفَ تَأْتي بِهِ مِنْ لَنْدَن ، وَقالَ :

« كُنْتُ أُزْجي الوَقْتَ هُنا وَهُناكَ . في البَيْتِ اليَوْمُ طَويلٌ ، فَإنْ لَمْ أَكُنْ قَدْ أَقْسَمْتُ أَنْ أَذْهَبَ وَحْدي ، فَلَرُبَّما اسْتَمْتَعْتُ بِمَساءٍ أَفْضَلَ ؛ لأَنَّني تَسَلَّمْتُ رِسالَةً مِنْ ستيبلتن يَسْأَلُني فيها أَنْ أَذْهَبَ فَوْرًا إلى مَنْزِلِهِ .»

قالَ هولمز : « لا شَكَّ عِنْدي في أَنَّكَ سَتَقْضي لَيْلَةً أَسْعَدَ مِنْ تِلْكَ الَّتي قَضَيْتَها ! وَلكِنْ ماذا عَنِ القَضِيَّةِ ؟ هَلِ اكْتَشَفْتَ شَيْئًا عَنْها ؟»

« حَدَثَ .. » ثُمَّ سَكَتَ فَجْأَةً وَهُوَ يَنْظُرُ بِثَباتٍ مِنْ فَوْقِ رَأْسي ، وَقَدْ تَأَلَّقَ القِنْديلُ عَلى وَجْهِهِ ذَلِكَ الوَجْهِ الَّذي كانَ

مِنَ الجُمودِ بِحَيْثُ يُخَيَّلُ لِلرَّائي أَنَّهُ قَدْ قُدَّ مِنْ حَجَرٍ ، غَيْرَ أَنَّ عَيْنَيْهِ كانَتا تَبْرُقانِ ، وَقالَ : « ها هِيَ ذي مَجْموعَةٌ مِنَ الصُّوَرِ تَعْكِسُ فَنًّا أَصيلاً ». وَراحَ يُحَرِّكُ يَدَهُ قُبالَ الجِدارِ المُقابِلِ .

« إِنَّها تُمَثِّلُ عائِلَتَكَ كُلَّها ، كَما يَتَراءى لي ».

« كُلُّ فَرْدٍ في عائِلَتي ».

« وَمَنْ ذَلِكَ الرَّجُلُ الَّذي يَرْمُزُ إِلى القَرْنِ السّابِعَ عَشَرَ ؟ »

« إِنَّهُ هوغو الشِّرّيرُ ، مَنْبَعُ كُلِّ مَتاعِبِنا ، وَسَبَبُ وُجودِ كَلْبِ باسكرفيل ».

« أَ حَقٌّ ما تَقولُ ؟ بَلْ يَبْدو أَنَّهُ رَجُلٌ سَمْحٌ لا يُؤْذي أَحَدًا ، في حينِ تَخَيَّلْتُهُ أَكْثَرَ شَراسَةً وَشَرًّا ».

« لا شَكَّ في ذَلِكَ . الاسْمُ وَالتّاريخُ (١٦٤٧) مَكْتوبانِ عَلى ظَهْرِ الصُّورَةِ ».

لَمْ يُضِفْ هولمز بَعْدَ ذَلِكَ إِلا القَليلَ ، لَكِنْ يَبْدو أَنَّ الصُّورَةَ شَغَلَتْهُ ؛ لأَنَّ عَيْنَيْهِ كانَتا لا تَحيدانِ عَنْها طَوالَ فَتْرَةِ تَناوُلِ طَعامِ العَشاءِ . وَبَعْدَ ذَلِكَ – حينَ أَوى سير هنري إِلى غُرْفَتِهِ –

اقْتادَني إِلى قاعَةِ الطَّعامِ مَرَّةً أُخْرى ، وَسَأَلَني :

« هَلْ تَرى شَيْئًا هُناكَ ؟ »

فَتَطَلَّعْتُ إِلى القُبَّعَةِ الواسِعَةِ بِما فيها مِنْ رِيشٍ ، وَالشَّعْرِ المُجَعَّدِ ، وَالياقَةِ البَيْضاءِ العَريضَةِ ، وَالوَجْهِ الفَظِّ الغَليظِ بِشَفَتَيْهِ الرَّقيقَتَيْنِ ، اللَّتَيْنِ تَنِمّانِ عَلى صَرامَةٍ ، وَعَيْنَيْهِ البارِدَتَيْنِ .

قالَ : « انْتَظِرْ ! » ثُمَّ وَقَفَ عَلى كُرْسِيٍّ وَقَدْ أَمْسَكَ بِالقِنْديلِ في يَدِهِ اليُسْرى ، وَأَحْنى ذِراعَهُ اليُمْنى لإِخْفاءِ القُبَّعَةِ العَريضَةِ وَخُصُلاتِ الشَّعْرِ الطَّويلَةِ .

صَرَخْتُ في دَهْشَةٍ بالِغَةٍ : « رُحْماكَ يا رَبُّ ! » لَقَدْ وَثَبَ مِنَ الصّورَةِ وَجْهُ ستيبلتن .

« لَعَلَّكَ تَراها الآنَ بِوُضوحٍ . لَقَدْ دُرِّبَتْ عَيْنايَ عَلى دِراسَةِ الوُجوهِ لا ما يُحيطُ بِها . هَذا الرَّجُلُ مِنْ آلِ باسكرفيل . هَذا واضِحٌ ! وَهَذا يَمُدُّنا بِحَلْقَةٍ مَفْقودَةٍ . لَقَدْ ظَفِرْنا بِهِ الآنَ ، يا واطْسُن ! »

اسْتَيْقَظْتُ مُبَكِّرًا ، لَكِنَّ هولمز كانَ قَدْ سَبَقَني . وَبَيْنَما كُنْتُ

ارْتَدي مَلابِسي رَأيْتُهُ قادِماً مِنَ الشّارِعِ الفَسيحِ .

سَأَلْتُهُ : « أ كُنْتَ على المُسْتَنْقَعِ ؟ »

« لَقَدْ بَعَثْتُ بِتَقْريرٍ مِنْ غريمپين إلى پرِنْستاون حَوْلَ مَوْتِ سيلدن ، ثُمَّ كانَ عَلَيَّ أنْ أرى سير هنري . آهْ ! ها هُوَ ذا ! »

« طابَ صَباحُكَ ، يا هولمز . إنَّكَ مِثْلُ اللّواءِ الّذي يُخَطِّطُ لِمَعْرَكَةٍ مَعَ رَئيسِ أرْكانِ حَرْبِهِ ! »

« وَإنّي لَكَذلِكَ ! وَقَدْ أصْدَرْتُ التَّعْليماتِ ، فَأنا أعْرِفُ أنَّكَ سَتَتَعَشّى اللَّيْلَةَ مَعَ أصْدِقائِنا آلِ ستيپلتن . »

« أتَعَشَّمُ أنْ تَحْضُرَ أنْتَ أيْضاً ، فَإنّي عَلى ثِقَةٍ بِأنَّهُمْ سَيَبْتَهِجونَ لِمَرْآكَ . »

« يُؤْسِفُني أنْ أضْطَرَّ أنا وَ واطْسُن إلى السَّفَرِ إلى لَنْدَن . »

« إلى لَنْدَن ؟ لَقَدْ كانَ أمَلي أنَّكُما سَوْفَ تُساعِدانَني في هَذِهِ المُهِمَّةِ ؛ فَإنَّ القَصْرَ وَالمُسْتَنْقَعَ لا يُريحانِ المَرْءَ عِنْدَما يَكونُ وَحْدَهُ . »

« صاحِبي العَزيز ! يَجِبُ أنْ تَثِقَ بي ، وافْعَلْ ما آمُرُكَ بِهِ . قُلْ

لأصْحابِكَ إنَّهُ يُسْعِدُنا أنْ نَكونَ مَعَهُمْ ، لَكِنَّ هَذِهِ المُهِمَّةَ العاجِلَةَ تُحَتِّمُ عَلَيْنا الذَّهابَ إلى لَنْدَن . هَلاّ تَذَكَّرْتَ أنْ تُسَلِّمَهُمْ هَذِهِ الرِّسالَةَ ؟ واطْسُن ، حَرِّرْ مُذَكِّرَةً إلى ستيپلتن ، تُخْبِرُهُ فيها أنَّكَ تَأسَفُ لِعَدَمِ مُشارَكَتِهِمُ العَشاءَ ؟ »

قالَ سير هنري : « بَلْ أحِبُّ أنْ أصاحِبَكُما إلى لَنْدَن . فيمَ بَقائي هُنا بِمُفْرَدي ؟ »

« لأنَّهُ الواجِبُ ، وَلأنَّكَ وَعَدْتَني بِأنَّكَ سَوْفَ تَفْعَلُ ما تُؤْمَرُ بِهِ ، وَأنا آمُرُكَ بِالبَقاءِ . »

« حَسَنٌ ، إنّي لَباقٍ . »

« شَيْءٌ آخَرُ ! أريدُكَ أنْ تَرْكَبَ عَرَبَتَكَ إلى ميريپيت هاوس ، ثُمَّ اصْرِفْ عَرَبَتَكَ بِأيَّةِ وَسيلَةٍ ، وَأدْخِلْ في رُوعِهِمْ أنَّكَ تَنْوي الذَّهابَ إلى المَنْزِلِ سائِراً عَلى قَدَمَيْكَ . »

« أمْشي عَبْرَ المُسْتَنْقَعِ ؟ لَقَدْ حَذَّرْتَني دَوْماً مِنْ أنْ أفْعَلَ ذَلِكَ . »

« لَوْلا يَقيني الكامِلُ في شَجاعَتِكَ وَإقْدامِكَ ، ما أمَرْتُكَ بِهَذا. لَكِنْ هَذا أمْرٌ لا مَفَرَّ مِنْهُ . »

« إنّي ، إذاً ، لَفاعِلٌ ».

« إذا كانَتْ لِحَياتِكَ قيمَةٌ عِنْدَكَ فَلا تَمْضِ عَلى المُسْتَنْقَعِ إلا عَلى الطَّريقِ المُسْتَقيمِ ، الّذي يَصِلُ مِنْ ميريبيت هاوس حَتّى غريمپين رُود ، وَهُوَ طَريقُكَ المُعْتادُ إلى مَنْزِلِكَ ».

« سَأَفْعَلُ ما أَمَرْتَني بِهِ ».

لَقَدْ فوجِئْتُ بِهذا البَرْنامَجِ . لَقَدْ قالَ هولمز لِستيپلتن ، في اللَّيْلَةِ السّابِقَةِ ، إنَّ زِيارَتَهُ سَوْفَ تَنْتَهي في اليَوْمِ التّالي ، وَما دارَ بِخَلَدي، مَهْما يَكُنْ ، أَنَّهُ كانَ يَرْغَبُ في ذَهابي مَعَهُ ، وَلَمْ أَفْهَمْ كَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ نَتَغَيَّبَ مَعاً في وَقْتٍ وَصَفَهُ هُوَ بِأَنَّهُ اللَّحْظَةُ الحَرِجَةُ . لكِنْ كانَ لِزاماً عَلَيَّ أَنْ أُطيعَ الأَمْرَ . وَبَعْدَ مُضِيِّ ساعَتَيْنِ ، وَجَدْنا أَنْفُسَنا في مَحَطَّةِ كومب تريسي ، فَدَخَلْناها وَصَرَفْنا المَرْكَبَةَ .

اِسْتَفْسَرَ هولمز عَنْ مَكْتَبِ المَحَطَّةِ حَيْثُ تَسَلَّمَ رِسالَةً مُؤَدّاها :

« تَمَّ تَسَلُّمُ رِسالَتِكَ . نَصِلُ السّاعَةَ الخامِسَةَ وَأَرْبَعينَ دَقيقَةً .
ليستريد ».

« ذَلِكَ رَدٌّ عَلى الرِّسالَةِ الّتي بَعَثْتُ بِها هذا الصَّباحَ ، وَليستريد هذا – عَلى ما أَعْتَقِدُ هُوَ أَفْضَلُ رَجُلِ شُرْطَةٍ ، وَقَدْ نَحْتاجُ إلى عَوْنِهِ . واطْسُن ، إنّنا لَنْ نَسْتَطيعَ اسْتِغْلالَ وَقْتِنا في شَيْءٍ أَفْضَلَ مِنْ عَمَلِ زِيارَةٍ لِلسَّيِّدَةِ لورا ليونز ».

وَبَدَتْ خُطَّتُهُ تَتَكَشَّفُ رُوَيْداً رُوَيْداً ؛ سَوْفَ يَسْتَخْدِمُ سير هنري في إقْناعِ آلِ ستيپلتن بِأَنَّنا تَغَيَّبْنا حَقيقَةً ، وَلَكِنَّنا سَنَعودُ في اللَّحْظَةِ الَّتي يَحْتاجُنا فيها .

كانَتِ السَّيِّدَةُ لورا في غُرْفَتِها ، وَاسْتَهَلَّ هولمز حِوارَهُ مَعَها بِمُبادَرَةٍ أَفْزَعَتْها ، فَقالَ :

« إنّي أُحَقِّقُ في قَضِيَّةِ مَوْتِ الفَقيدِ سير تشارلز باسكرڤيل . لَقَدِ اعْتَرَفْتِ أَنَّكِ طَلَبْتِ إلَيْهِ أَنْ يَكونَ عِنْدَ البَوّابَةِ في مَمَرِّ أَشْجارِ السَّرْوِ في السّاعَةِ العاشِرَةِ ، وَنَحْنُ نَعْرِفُ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ المَكانُ وَالزَّمانُ حَيْثُ لَقِيَ حَتْفَهُ ، وَلَمْ تَعْتَرِفي بِالعَلاقَةِ بَيْنَ الحَدَثَيْنِ ».

« لا عَلاقَةَ بَيْنَهُما ».

« هَذا أَمْرٌ خارِقٌ لِلنَّواميسِ الطَّبيعِيَّةِ ! إنّي أُريدُ أَنْ أَكونَ أَميناً مَعَكِ ، يا سَيِّدَةُ . إنّا نَعْتَبِرُ هَذا حالَةَ قَتْلٍ ، وَلَنْ نُغْرِقَ صاحِبَكِ

سِير ستيبلتن وَحْدَهُ ، وَلَكِنْ زَوْجَتَهُ كَذَلِكَ ».

قَفَزَتِ السَّيِّدَةُ مِنْ كُرْسِيِّها ، وَصاحَتْ : « زَوْجَتُهُ !»

« لَمْ يَعُدِ الأَمْرُ سِرّاً ، إِنَّ المَرْأَةَ الَّتي دَعاها بِشَقيقَتِهِ لَيْسَتْ سِوى زَوْجَتِهِ !»

رَدَّدَتْ مَرَّةً ثانِيَةً : « زَوْجَتُهُ ! زَوْجَتُهُ ! إِنَّهُ لَيْسَ مُتَزَوِّجاً . بَرْهِنْ لي عَلى ذَلِكَ . فَإِنِ اسْتَطَعْتَ ...» وَنَطَقَ وَميضُ عَيْنَيْها الشَّرِسَتَيْنِ بِأَكْثَرَ مِمّا تَقولُ شَفَتاها .

رَدَّ هولمز وَهُوَ يُخْرِجُ مِنْ جَيْبِهِ بِضْعَ أَوْراقٍ :« وَأَنا ما جِئْتُ إِلا لِهَذا !»

وَمَضى يَقولُ : « ها هِيَ ذي صورَةٌ شَمْسِيَّةٌ لَهُما ، صُوِّرَتْ في يورك مُنْذُ أَرْبَعِ سَنَواتٍ . وَكانَ مَكْتوباً عَلى ظَهْرِها « السَّيِّدُ وَالسَّيِّدَةُ ڤاندلير » ، وَلَنْ تَلْقَيْ مَشَقَّةً في التَّعَرُّفِ عَلَيْهِ ، وَهِيَ بِالمِثْلِ ، إِذا كُنْتِ تَعْرِفيها شَكْلاً . وَها هِيَ ذي ثَلاثَةُ أَوْصافٍ مَكْتوبَةٌ بِعِنايَةٍ ، لِلسَّيِّدِ وَالسَّيِّدَةِ ڤاندلير ، اللَّذَيْنِ كانا يُديرانِ مَدْرَسَةَ سانت أوليڤر الخاصَّةَ . اِقْرَئيها وَانْظُري أَيَّ رَأْيٍ تَرَيْنَ ».

وَانْتَهَتْهُما بِنَظْرَةٍ ثُمَّ عَلَّقَتْ بِوَجْهِ المَرْأَةِ اليائِسَةِ قائِلَةً : « سَيِّدُ هولمز ، لَقَدْ عَرَضَ عَلَيَّ ذَلِكَ الرَّجُلُ الزَّواجَ ، شَريطَةَ أَنْ أُطَلَّقَ مِنْ زَوْجي ، وَبِذَلِكَ فَقَدْ كَذَبَ عَلَيَّ . وَإِنّي لأَرى الآنَ أَنَّني لَمْ أَكُنْ سِوى أَداةٍ في يَدَيْهِ . كَيْفَ أُخْلِصُ لَهُ ، وَلَمْ يُخْلِصْ هُوَ لي ؟ لِماذا أُحاوِلُ تَحْصينَهُ مِنْ مَغَبَّةِ فِعالِهِ الشِّرِّيرَةِ ؟ سَلْ ما بَدا لَكَ ؛ فَإِنّي سَأُميطُ لَكَ اللِّثامَ عَنْ كُلِّ ما في جُعْبَتي . وَإِنّي لأُقْسِمُ لَكَ إِنّي عِنْدَما كَتَبْتُ ذَلِكَ الخِطابَ ، لَمْ أَكُنْ أَتَوَقَّعُ أَيَّ أَذًى يُصيبُ مَنْ كانَ أَكْثَرَ النّاسِ حَدَباً عَلَيَّ ».

« إِنّي لَمُصَدِّقُكِ في كُلِّ ما تَرْوينَ ؛ أَ هُوَ ستيبلتن الَّذي اقْتَرَحَ إِرْسالَ هَذا الخِطابِ ؟»

« أَجَلْ ، وَأَمْلاني نَصَّهُ ».

« هَلْ قالَ لَكِ إِنَّكِ سَوْفَ تَتَلَقَّيْنَ مَعونَةً مِنْ سِير تشارلز لِلإِنْفاقِ عَلى نَفَقاتِ الطَّلاقِ ؟»

« بِالضَّبْطِ ».

« إِذاً ، بَعْدَ أَنْ أَرْسَلْتِ ذَلِكَ الخِطابَ ، هَلْ أَقْنَعَكِ بِأَلا تَفي بِالوَعْدِ ؟»

« أحَلْ . قالَ لي إنَّهُ لمِمّا يَخدِشُ كِبْرياءَهُ أنْ يُعْطِيَني شَخصٌ غَيْرُهُ نُقوداً مُقابِلَ مِثْلِ هَذا العَمَلِ ».

« هَلْ حَمَلكِ فيما بَعْدُ على القَسَمِ بِألا تَذْكُري شَيْئاً عَنْ هَذا المَوْعِدِ المَضْروبِ مَعَ سير هنري ؟ »

« لَقَدْ فَعَلَ . قالَ إنّني سيُوجّهُ إليَّ اتِّهامٌ إذا ما أميطَ اللِّثامُ عَنْ هَذِهِ الحَقائِقِ ، وَهَدَّدَني إنْ لَمْ ألْتزِمِ الصَّمْتَ ».

« يُخَيَّلُ إليَّ أنّكِ أنْقَذْتِ بِأعْجوبَةٍ ! فَلَقَدْ وَضَعْتِهِ تَحْتَ سُلْطانِكِ ، وَعَرَفَ هُوَ ذَلِكَ ، وَمَعَ ذَلِكَ فَما زِلْتِ عَلى قَيْدِ الحَياةِ ! طابَ صَباحُكِ ، يا سَيِّدَةُ ليونز ».

بادَرَني هولمز ، وَنَحْنُ واقِفانِ نَتَرَقَّبُ في كومب تريسي وُصولَ القِطارِ السَّريعِ القادِمِ مِنْ لَنْدَن ، قائِلاً : « قَضِيَّتُنا اكْتَمَلَتْ ، وَكُلُّ عُقْدَةٍ انْحَلَّتْ ».

وَعِنْدَما أقْبَلَ القِطارُ مُنْدَفِعاً في المَحَطَّةِ ، وَثَبَ مِنَ الدَّرَجَةِ الأولى رَجُلٌ نَشِطٌ ضَئيلُ الجِسْمِ ، وَتَبادَلْنا التَّحِيَّةَ وَالسَّلامَ .

قالَ هولمز : « لَدَيْنا ساعَتانِ قَبْلَ التَّفْكيرِ في البَدْءِ في العَمَلِ ،

وَلعَلّنا نَسْتَغِلُّهُما في تَناوُلِ العَشاءِ . عَلَيْكَ إذاً ، يا ليستريد ، أنْ تُزيلَ الدُّخانَ — دُخانَ لَنْدَن عَنْ رِئَتَيْكَ ؛ بِأنْ تَسْتَنْشِقَ نَسيمَ اللَّيْلِ العَليلَ في دارتمور . أَزُرْتَها قَبْلَ اليَوْمِ ؟ آهْ ، حَسَنٌ ، لا أعْتَقِدُ أنّكَ نَسيتَ أوّلَ زِيارَةٍ لَها ».

الفَصْلُ الرّابِعَ عَشَرَ

إنَّ مِنْ عُيوبِ شِرْلوك هولمز – إذا أَمْكَنَ أَنْ يُسَمِّيَها المَرْءُ عُيوبًا – أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَوْمًا مُسْتَعِدًّا لِكَشْفِ خُطَطِهِ كامِلَةً لأَحَدٍ مَهْما يَكُنْ ، حَتّى لَحْظَةِ إتْمامِها . وَعِنْدَما اقْتَرَبْنا مِنَ المُسْتَنْقَعِ مَرَّةً أُخْرى قَلَّتْ مُناقَشَتُنا بِحُضورِ سائِقِ العَرَبَةِ الأُجْرَةِ . وَقَدْ أَحْسَسْتُ بِالارْتِياحِ حينَ تَوَقَّفْنا قُرْبَ القَصْرِ عِنْدَ مَسْرَحِ العَمَلِ ، وَتَرَجَّلْنا قُرْبَ بَوّابَةِ الشّارِعِ الطَّويلِ ، وَعادَتِ المَرْكَبَةُ إلى كومب تريسي . وَشَرَعْنا في السَّيْرِ نَحْوَ ميريبيت هاوس .

قالَ ليستريد وَهُوَ يَتَطَلَّعُ حَوْلَهُ في مُنْحَدَراتِ التِّلِّ المُظْلِمَةِ ، وَإلى بُحَيْرَةِ الضَّبابِ الَّتي قَبَعَتْ فَوْقَ جريمبين مايَر : « يَبْدو مَكانًا لا يَبْعَثُ عَلى البَهْجَةِ . » ثُمَّ أَضافَ : « أَرى أَنْوارَ إحْدى الدّورِ . »

وَتَحَرَّكْنا حَذِرينَ فَوْقَ المَمَرِّ كَأَنّا ذاهِبونَ إلى تِلْكَ الدّارِ ، بَيْدَ

أَنَّ هولمز اسْتَوْقَفَنا وَنَحْنُ عَلى مَسافَةِ مِئَتَيْ مِتْرٍ تَقْريبًا مِنَ الدّارِ ، وَقالَ :

« حَسْبُنا هَذا . هَذِهِ الصُّخورُ تَصْلُحُ سِتارًا لَنا ، وَعَلَيْنا أَنْ نَعْمَلَ مِنْ هُنا . ارْقُدا في هَذِهِ الحُفْرَةِ ؛ إنَّكُما في داخِلِ الدّارِ ، وَتَذَكَّرا مَواقِعَ الحُجُراتِ . ازْحَفا قُدُمًا بِهُدوءٍ ، وَانْظُرا ماذا يَفْعَلونَ ، وَلَكِنْ ناشَدْتُكُما اللهَ ألّا تُشْعِراهُمْ بِأَنَّهُمْ تَحْتَ المُراقَبَةِ! »

وَزَحَفْتُ أَنا عَلى المَمْشى ، وَانْحَنَيْتُ خَلْفَ الجِدارِ الواطِئِ ، فَبَلَغْتُ نُقْطَةً اسْتَطَعْتُ فيها أَنْ أَنْظُرَ مِنْ خِلالِ النّافِذَةِ الخالِيَةِ مِنَ السَّتائِرِ ، في غُرْفَةِ الطَّعامِ ، وَكانَ ثَمَّ رَجُلانِ : سير هنري وَستيبلتن .

وَبَعْدَما قَدَّمْتُ تَقْريري قالَ هولمز : « تَقولُ ، يا واطْسُن ، إنَّ السَّيِّدَةَ لَيْسَتْ هُناكَ ؟ أَيْنَ عَساها تَكونُ – إذًا – حَيْثُ لا نورَ في أَيٍّ مِنَ الحُجُراتِ ؟ »

قُلْتُ إنَّ ثَمَّةَ ضَبابًا أَبْيَضَ مُعَلَّقًا فَوْقَ جريمبين مايَر العَظيمِ ، وَكانَ يَهْبِطُ نَحْوَنا بِبُطْءٍ ، وَما لَبِثَ أَنْ تَكَوَّمَ كَالجِدارِ حَيْثُ كُنّا .

« إنَّهُ يَتَحَرَّكُ نَحْوَنا ، يا واطْسُن . وَإِنَّهُ الشَّيْءُ الوَحيدُ عَلى الأَرضِ الَّذي يُمْكِنُهُ إِفْسادُ خُطَطِنا ! إنَّ نَجاحَنا في إِبْقائِهِ عَلى قَيْدِ الحَياةِ يَتَوَقَّفُ عَلى خُروجِهِ مِنْ مَكانِهِ ، قَبْلَ أَنْ يَغْمُرَ الضَّبابُ المَمْشى ».

كانَ اللَّيْلُ رائِعاً وَتَلأْلأَتِ النُّجومُ بَرّاقَةً ، في حينَ غَمَرَ القَمَرُ المَنْظَرَ كُلَّهُ في ضِياءٍ رَشيقٍ . وَغَشِيَ الضَّبابُ الأَبْيَضُ أَكْثَرَ مِنْ نِصْفِ المُسْتَنْقَعِ ، وَكانَ يَقْتَرِبُ رُوَيْداً رُوَيْداً مِنَ الدّارِ . وَكانَ جِدارُ الحَديقَةِ قَدِ اخْتَفى لِتَوِّهِ وَلَمْ يَبْقَ إِلا الأَشْجارُ الَّتي شَخَصَتْ عالِيَةً فَوْقَ الضَّبابِ . وَضَرَبَ هولمز الصَّخْرَةَ الَّتي أَمامَنا بِيَدِهِ في حِدَّةٍ ، وَضَرَبَ الأَرْضَ بِقَدَمِهِ في قَلَقٍ شَديد ، وَقالَ :

« إذا لَمْ يَخْرُجْ في غُضونِ رُبْعِ السّاعَةِ فَإِنَّ المَمْشى سَيُحْجَبُ بِأَكْمَلِهِ ، وَبَعْدَ نِصْفِ السّاعَةِ مِنَ الآنَ لَنْ نَسْتَطيعَ رُؤْيَةَ أَيْدينا أَمامَنا ! »

« هَلْ نَنْتَقِلُ إِلى الوَراءِ ، إِلى مَكانٍ أَعْلى ؟ »

« أَجَلْ ، ذَلِكَ عَيْنُ الصَّوابِ ».

وَهَكَذا عِنْدَما تَدَفَّقَ الضَّبابُ إِلى الأَمامِ تَقَهْقَرْنا لِلْخَلْفِ ، حَتّى صِرْنا عَلى مَسافَةِ نِصْفِ كيلومِتْرٍ مِنَ الدّارِ .

قالَ هولمز : « يَجِبُ أَلا نَبْتَعِدَ كَثيراً ، فَلَنْ نَجْرُؤَ عَلى اغْتِنامِ فُرْصَةِ القَبْضِ عَلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَصِلَنا بِنَفْسِهِ . آهْ ! الحَمْدُ للهِ ! أَظُنُّني سَمِعْتُهُ مُقْبِلاً ».

وَقَطَعَ سُكونَ المُسْتَنْقَعِ خُطواتُ أَقْدامٍ سَريعَةً ، فَرُحْنا نَرْقُبُ الضَّبابَ أَمامَنا وَنَحْنُ مُخْتَبِئونَ بَيْنَ الصُّخورِ . وَزادَ صَوْتُ وَقْعِ الأَقْدامِ . وَمِنْ خِلالِ الضَّبابِ ، وَكَأَنَّهُ مِنْ خِلالِ سِتارٍ ، أَتى الرَّجُلُ الَّذي كُنّا نَتَرَقَّبُهُ ، وَتَطَلَّعَ حَوْلَهُ دَهِشاً وَهُوَ يَظْهَرُ في ضِياءِ القَمَرِ ، ثُمَّ سَرْعانَ ما أَقْبَلَ عَلى المَمَرِّ ، وَمَرَّ قَريباً مِنّا ، وَصَعَدَ في المُنْحَدَرِ الواقِعِ خَلْفَنا . وَإِذْ كانَ يَمْشي تَطَلَّعَ مِنْ فَوْقِ كَتِفِهِ في قَلَقٍ وَحَيْرَةٍ .

صاحَ هولمز وَهُوَ يَرْفَعُ مُسَدَّسَهُ : « ها هُوَ ذا قادِمٌ ! »

كانَ هُناكَ حَفيفُ أَقْدامٍ آتِياً مِنْ مَكانٍ ما في قَلْبِ الضَّبابِ ، وَكانَ السَّحابُ عَلى بُعْدِ خَمْسينَ مِتْراً مِنْ مَكانِ اخْتِبائِنا ، فَرُحْنا نَرْقُبُ ، وَنَحْنُ لا نَدْري أَيَّ أَمْرٍ مُفْزِعٍ كانَ يُمْكِنُ أَنْ يَخْرُجَ مِنْ بَيْنِهِ . كانَتْ رَقْدَتي بِجِوارِ هولمز ، فَرُحْتُ أَتَفَرَّسُ في وَجْهِهِ لَحْظَةً ، كانَ شاحِبَ الوَجْهِ قَلِقاً ، وَعَيْناهُ تَلْمَعانِ في ضَوْءِ القَمَرِ ، لَكِنَّهُ تَحَرَّكَ فَجْأَةً إِلى الأَمامِ . أَمّا ليستريد فَقَدْ



بعثَ بِصرْخةِ هَلعٍ وألقى بنفسِهِ على الأرْضِ . وَانْتصبْتُ أنا واقِفاً على قَدميَّ ومُسدَّسي في يَدي . لكنَّ ما أدْهَشني هُوَ الشَّيْءُ المُفزِعُ الَّذي وَثَبَ علَيْنا مِنْ خلالِ الضَّبابِ ، كانَ كَلْباً ضخْمَ الجُثَّةِ ، لمْ تَقَعْ على مثْلِه عيْنا آدميٍّ قطُّ ، وقدِ انْبعَثَتِ النّارُ مِنْ فَمِهِ ، وعيْناهُ تلْتهِبانِ ، أمّا مَحالِبُهُ فقَدْ حَدَّدَتْها ألْسِنَةُ اللَّهَبِ ، وَلا يُمكِنُ أنْ يبْلُغَ أيُّ حُلُمٍ مُفزِعٍ مبْلَغَ الفَزَعِ الَّذي يُسبِّبُهُ ذَلِكَ الهيْكَلُ الأسْوَدُ ، الَّذي اقْتحَمَ مِنْ جِدارِ الضَّبابِ . وبِقَفَزاتٍ واسِعَةٍ تَجاوَزَ مَكانَنا ذَلِكَ المَخْلوقُ الهائِلُ ، وَانْطَلَقْنا أنا وَهولمز النّارَ مَعاً ؛ فَأرْسَلَ المَخْلوقُ صَرْخَةَ ألَمٍ أثْبتَتْ أنَّ واحِداً مِنّا على الأقَلِّ قَدْ أصابَهُ . لكِنَّهُ لَمْ يَتَوقَّفْ وَإنَّما مَضى يَعْدو ، وَعلى بُعْدٍ مُعيَّنٍ مِنْ ذَلِكَ المَمَرِّ شاهَدْنا سير هنري ، وَكانَ وَجْهُهُ شاحِباً مُمْتَقِعاً في ضَوْءِ القَمَرِ ، وَيَداهُ مَرْفوعَتَيْنِ في فَزَعٍ شَديدٍ ، وَكانَ يَتَطَلَّعُ خَلْفَهُ في هَلَعٍ مُطْبِقٍ إلى ذَلِكَ الشَّيْءِ الفَظيعِ الَّذي كانَ يُطارِدُهُ .

بَيْدَ أنَّ صَرْخَةَ الألَمِ الَّتي انْبَعَثَتْ مِنَ الكَلْبِ قَدْ وَضَعَتْ نِهايَةً لِمَخاوِفِنا ؛ فَإذا كانَ قَدْ أُصيبَ ، فَلَعَلَّهُ ماتَ . وَمِنْ أمامِنا وَنَحْنُ نَصْعَدُ مُهَرْوِلينَ في المَمَرِّ ، تَطَرَّقَ إلى سَمْعِنا صَيْحَةٌ تِلْوَ صَيْحَةٍ مِنْ سير هنري ، وَزَئيرٌ عَميقٌ مِنْ جانِبِ الكَلْبِ . وَقَدْ

كُنْتُ في المكانِ المُناسِبِ لِرُؤْيَةِ الوَحْشِ يَثِبُ وَيُلْقي بِسِير هِنري على الأَرْضِ ، مُهاجِماً رَقَبَتَهُ ، لَكِنْ في لَحْظَةٍ ، أَطْلَقَ هولمز خَمْسَ طَلَقاتٍ في جَنْبِ ذَلِكَ المَخْلوقِ ، وَمَعَ آخِرِ صَرْخَةِ أَلَمٍ ، راحَ يَتَدَحْرَجُ على ظَهْرِهِ لِيَرْقُدَ ساكِناً عَلى جَنْبِهِ . أَمّا أَنا فَقَدِ انْحَنَيْتُ وَأَنا أَلْهَثُ ، وَ وَضَعْتُ فُوَّهَةَ مُسَدَّسي عَلى ذَلِكَ الرَّأْسِ المُرْعِبِ لَكِنَّهُ كانَ قَدْ فارَقَ الحَياةَ .

أَمّا سِير هنري فَقَدْ سَقَطَ مَغْشِيّاً عَلَيْهِ ، فَقُمْنا بِتَمْزيقِ ياقَتِهِ . وَأَدّى هولمز صَلاةَ شُكْرٍ عِنْدَما تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ أَثَرٌ لإِصابَةٍ ، وَأَنَّ النَّجْدَةَ تَمَّتْ في وَقْتِها . وَما لَبِثَ صاحِبُنا أَنِ ارْتَعَشَ جَفْناهُ وَقامَ بِمُحاوَلَةٍ ضَعيفَةٍ لِلتَّحَرُّكِ ، وَتَلا ذَلِكَ أَنْ تَطَلَّعَ إِلَيْنا وَعَيْناهُ تَمْتَلِئانِ خَوْفاً ، وَهَمَسَ : « ما هَذا ؟ ماذا كانَ بِرَبِّكُمْ ؟»

أَجابَهُ هولمز : « أَيّاً ما كانَ فَقَدْ ماتَ ! لَقَدِ اسْتَأْصَلْنا شَأْفَةَ شَيْطانِ الأُسْرَةِ إِلى الأَبَدِ .»

لَقَدْ تَمَدَّدَ المَخْلوقُ الرَّهيبُ أَمامَنا وَعَلَيْهِ سيماءُ الجَبَروتِ . وَكانَ كَأَنَّهُ حِصانٌ مِنْ جِيادِ المُسْتَنْقَعِ . لَقَدْ كانَتْ مَخالِبُهُ حَتّى في سُكونِ المَوْتِ مُحاطَةً بِسِياجٍ مِنَ اللَّهيبِ الأَزْرَقِ ، وَالعَيْنانِ القاسِيَتانِ تُحيطُ بِهِما النّيرانُ . وَعِنْدَما جَعَلْتُ يَدَيَّ عَلى

فَمِهِ وَرَفَعْتُهُما ؛ كانَتْ أَصابِعي تَلْمَعُ في الظُّلْمَةِ .

قُلْتُ : « فُوسْفور !»

رَدَّ هولمز : « نَعَمْ ؛ إِعْدادٌ ماهِرٌ لِلْفُوسْفور ، لَكِنَّهُ لا عَلاقَةَ بَيْنَ هَذا وَرائِحَةِ الكَلْبِ . نَحْنُ نَدينُ لَكَ بِالاعْتِذارِ ، يا سِير هنري ! لَقَدْ كُنْتَ مُسْتَعِدّاً لِمُلاقاةِ كَلْبٍ لا لِمُلاقاةِ مَخْلوقٍ كَهَذا ، وَلَمْ يَمْنَحْنا الضَّبابُ إِلا وَقْتاً قَصيراً لِلتَّعامُلِ مَعَهُ . إِنَّكَ لَسْتَ مُؤَهَّلاً لِلْقِيامِ بِمُغامَراتٍ أُخْرى اللَّيْلَةَ ؛ فَانْتَظِرْ ها هُنا وَسَوْفَ يَحْمِلُكَ أَحَدُنا إِلى القَصْرِ .»

وَساعَدْناهُ في الوُصولِ إِلى إِحْدى الصُّخورِ ، حَيْثُ جَلَسَ جاعِلاً رَأْسَهُ بَيْنَ كَفَّيْهِ .

قالَ هولمز وَنَحْنُ عائِدونَ سَريعاً عَلى المَمَرِّ : « إِنَّ الأَمَلَ ضَعيفٌ في العُثورِ عَلى رَجُلِنا في الدّارِ ، وَلا بُدَّ أَنَّ تِلْكَ الطَّلَقاتِ النّارِيَّةَ قَدْ نَبَّهَتْهُ أَنَّهُ خَسِرَ اللُّعْبَةَ ، بَيْدَ أَنَّنا سَنُفَتِّشُ الدّارَ لِلتَّأَكُّدِ مِنْ وُجودِهِ أَو عَدَمِهِ .»

كانَ البابُ الأَمامِيُّ مَفْتوحاً . فَانْدَفَعْنا إِلى الدّاخِلِ ، وَقَدْ حَمَلَ هولمز مِصْباحاً ، وَهُرِعْنا مِنْ حُجْرَةٍ إِلى حُجْرَةٍ ، فَلَمْ نَجِدْ

أثراً لِرَجُلٍ ، بَيْدَ أنَّهُ كانَ هُناكَ أحَدُ الأبوابِ في غُرْفَةِ النَّوْمِ ، في الطّابَقِ العُلْوِيِّ ، مُغْلَقاً .

قالَ ليستريد : « إنَّ بِالغُرْفَةِ رَجُلاً ! إنّي لأسْمَعُ حَرَكَةً . فَلْنَفْتَحْ هَذا البابَ ».

جاءَ صَوْتٌ ضَعيفٌ مِنْ داخِلِ الحُجْرَةِ ، وَعِنْدَما ضَرَبَ ليستريد فَوْقَ القُفْلِ ، مُباشَرَةً انْفَجَرَ مَفْتوحاً ، وَدَخَلْنا ثلاثَتُنا الحُجْرَةَ وَمُسَدَّساتُنا في أيْدينا ، فَرَأيْنا مَنْظَراً غَريباً :

كانَ في وَسَطِ الغُرْفَةِ عَمودٌ خَشَبِيٌّ واصِلٌ لِلسَّقْفِ ، وَقَدْ رُبِطَ إلى ذَلِكَ العَمودِ شَخْصٌ بِمُلاءاتٍ مُحْكَمَةٍ حَوْلَهُ ، بِحَيْثُ لا يَعْرِفُ المَرْءُ إنْ كانَ رَجُلاً أوِ امْرَأةً ، وَقَدْ لُفَّتْ حَوْلَ الرَّقَبَةِ مِنْشَفَةٌ رُبِطَتْ إلى الخَلْفِ في العَمودِ ، وَمِنْشَفَةٌ أخْرى كانَتْ تُغَطّي الجُزْءَ الأدْنى مِنَ الوَجْهِ ، وَفَوْقَها عَيْنانِ سَوْداوانِ يَمْلَؤُهُما الشَّجَنُ وَالخِزْيُ وَهُما تَنْظُرانِ إلَيْنا . وَما هِيَ إلا دَقيقَةٌ فَحَسْبُ حَتّى حَلَلْتُ جَميعَ الأرْبِطَةِ ، وَخَرَّتِ السَّيِّدَةُ ستيبلتن عَلى الأرْضِ أمامَنا ، وَرَأيْتُ العَلاماتِ الحَمْراءَ مِنْ أثَرِ السُّقوطِ عَلى عُنُقِها .

قالَ هولمز : « يا لَهُ مِنْ إبْليسَ ! أجْلِساها في الكُرْسِيِّ . لَقَدْ

أغْمِيَ عَلَيْها ».

وَعادَتْ فَفَتَحَتْ عَيْنَيْها وَغَمْغَمَتْ سائِلَةً : « هَلْ هَرَبَ ؟»

« لَنْ يُفْلِتَ مِنْ أيْدينا ».

« لا ، لا ، لَمْ أعْنِ زَوْجي . هَلْ نَجا سِير هنري ؟»

« أجَلْ !»

« وَما بالُ الكَلْبِ ؟»

« لَقِيَ حَتْفَهُ ».

« الحمْدُ لله ! يا لَهُ مِنْ إنْسانٍ فَظٍّ غليظِ القَلْبِ ! أنْظُروا ماذا فَعَلَ بي !» ثُمَّ بَسَطَتْ ذِراعَيْها فَرَأيْنا عَلَيْهِما عَلاماتِ العُنْفِ ، وقالَتْ . « لكنَّ ذلكَ لَيْسَ شَيْءٌ ! لَيْس شَيْءٌ ! وكانَ مِن المُمْكِنِ أنْ أتَحمَّلَ خيانَتَهُ بما فيها مِنْ قَسْوَةٍ ، وهِجْرانٍ ، وَحياةِ خِداعٍ . أيُّ شَيْءٍ أتَحَمَّلُهُ ما دُمْتُ أحِسُّ أنَّني أنْعَمُ بِحُبِّهِ ، بَيْدَ أنَّهُ ظَلَّ حَتّى هذِهِ اللَّحْظَةِ في خِداعي واسْتِغْلالي أسْوأَ اسْتِغْلالٍ »

« أخْبِرينا ، إذاً ، أيْنَ نَجِدُهُ ؟»

« هُناكَ ، في مَنْجَمٍ قَصْديرٍ على جَزيرةٍ في قَلْبِ المُسْتَنْقَعِ ، حَيْثُ يُرَبّي كَلْبَهُ ».

كانَ مِنَ الجَلِيِّ – لِكَيْ نَتَعَقَّبَهُ – أنْ يَنْقَشِعَ الضَّبابُ ، ولِذا تَرَكْنا ليسترِيد في ميرِيبيت هاوس ، في حينَ اصْطَحَبْنا سِير هنري إلى قَصْرِ باسكرفيل . وَكانَ يُعاني صَدْمَةَ مُغامَراتِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ . وقَبْلَ حُلولِ الصَّباحِ ، كانَ يَرْقُدُ في فِراشِهِ يُعاني حُمّى مُبَرِّحَةً تَحْتَ عِنايَةِ الدُّكْتور مورتيمر ، وَكانَ لا بُدَّ مِنْ مُضِيِّ شُهورٍ حَتّى يَسْتَرِدَّ صِحَّتَهُ الّتي كانَ عَلَيْها قَبْلَ أنْ يَصيرَ سَيِّداً لِقَصْرِ باسكرفيل.

الآنَ أنْتَقِلُ سَريعاً إلى نِهايَةِ هَذِهِ القِصَّةِ :

في الصَّباحِ ، وَبَعْدَ مَصْرَعِ الكَلْبِ ، انْقَشَعَ الضَّبابُ ، فَأرْشَدَتْنا السَّيِّدَةُ ستيبلتن إلى بُقْعَةٍ ، عِنْدَها بَدأَ طَريقٌ عَبْرَ المُسْتَنْقَعِ الموحِلِ . وَكانَ هُنا وَهُناكَ عِصِيٌّ مُلْقاةٌ كَعَلامَةٍ على انْفِراجِ المَمَرِّ ، خِلالَ الطّينِ المُغطّى بالخُضْرَةِ . فَتَنَفَّسْنا رائِحةَ التَّحَلُّلِ والعَفَنِ . وَكانَ الوَحْلُ يَهْتَزُّ مِنْ حَوْلِ أقْدامِنا ، حَتّى إذا ما خَطَوْنا خُطْوَةً خاطِئَةً غاصَتْ أرْجُلُنا فيهِ . وَكانَ يَتَشَبَّثُ وَنَحْنُ سائِرونَ وكَأنَّهُ يُريدُ أنْ يَبْتَلِعَنا في أعْماقِهِ . وَكانَتْ مَرَّةً واحِدَةً عِنْدَما رَأيْنا عَلامَةً عَلى أنَّ شَخْصاً ما قَدْ مَرَّ قَبْلَنا بِذلِكَ



الطَّرِيقِ . كانَ ثَمَّ شَيْءٌ يَرْقُدُ على بَعْضِ العُشْبِ الخَشِنِ فَوْقَ الطِّينِ . وَغَطَسَ هولمز حَتّى وَسَطِهِ وَهُوَ يَخْطو عَلى المَمَرِّ لِلإِمْساكِ بِذَلِكَ الشَّيْءِ ، وَلَوْلا أَنّنا كُنّا أما وليستريد هُناكَ لَما وَصَلَ الأَرْضَ المُسْتَقِرَّةَ مَرَّةً أُخْرى ، وَرَفَعَ فَرْدَةَ حِذاءٍ سَوْداء قَديمَةً في الهَواءِ ، وَكانَ مَطْبوعاً عَلى الجِلْدِ بِداخِلِ الحِذاءِ هاتانِ الكَلِمَتانِ « مِيير ، تورونتو » .

وَهُنا قالَ هولمز : « إِنَّها فَرْدَةُ حِذاءِ صَديقِنا سير هنري الضّائِعَةُ ، وَقَد اسْتَخْدَمَها ستيبلتن لِيَضَعَ الكَلْبَ عَلى طَريقِ سير هنري ، فَأَلْقى بِها بَعيداً إِلى تِلْكَ النُّقْطَةِ. وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّهُ جاءَ قاطِعاً تِلْكَ المَسافَةَ في مَأْمَنٍ .»

لَمْ يَكُنْ أَمامَنا أَيَّةُ فُرْصَةٍ لِلْعُثورِ عَلى آثارِ أَقْدامٍ في المُسْتَنْقَعِ . وَعِنْدَما بَلَغْنا آخِرَ الأَمْرِ الأَرْضَ الثّابِتَةَ ، رُحْنا نَبْحَثُ بِشَغَفٍ وَلَهْفَةٍ عَنْ آثارِ أَقْدامٍ ، لَكِنّا ما وَجَدْنا شَيْئاً . ذَلِكَ الرَّجُلُ الفَظُّ القاسي القَلْبِ مَدْفونٌ في الوَحْلِ إِلى الأَبَدِ ، في قَلْبِ مُسْتَنْقَعِ غريمبين العَظيمِ ، كانَ ثَمَّةَ دَلائِلُ عَلَيْهِ في الجَزيرَةِ . وَ وَجَدْنا المَنْجَمَ وَبِجِوارِهِ بَقايا أَكْواخِ العُمّالِ ، وَفي واحِدٍ مِنْ هَذِهِ الأَكْواخِ ، أَظْهَرَتْ سِلْسِلَةً وَكَمِّيَّةً مِنَ العِظامِ عَلى المَكانِ الَّذي عاشَ فيهِ الكَلْبُ .

قالَ هولمز : « حَسَنٌ ! أنا لا أرى أنَّ هَذا المكانَ يَحْتوي على أيّة أسْرارٍ أخرى . لَقد اسْتطاعَ إخْفاءَ حيَوانِه لكنَّهُ لمْ يقْدِرْ على تهْدِئَةِ نُباحِهِ ؛ وَمِنْ ثَمَّ جاءَتْ تِلْكَ الصَّرخاتُ الَّتي لا تَسُرُّ سامِعَها ولَوْ في وضحِ النَّهارِ . إنَّ تِلْكَ المادَّة المَرِحَةَ الَّتي في العُلْبَةِ الصَّفيحِ إنَّما هي مُسْتَحْضَرٌ لِلْفوسْفور . لَقَدْ كانتْ فِكْرَةً ذكيَّةً حقًا ! ومَنْ ذا الَّذي يجْرُؤُ على فَحْصِ ذلِكَ المخْلوقِ عَنْ كثَبٍ ، إذا رآهُ على المُسْتَنْقعِ ؟ أعودُ فأقولُ ، يا واطْسُن ، إنَّنا لمْ نُوقِعْ إنْسانًا أكْثرَ خُطورةً مِنْ ذلِكَ الَّذي يرْقُدُ هُناكَ . » ثُمَّ مدَّ ذِراعَهُ الطَّويلةَ نحْوَ المُسْتَنْقعِ الأخْضَرِ والبُنّيِّ ، الَّذي امْتدَّ عَنْ بُعْدٍ في اتِّجاهِ مُنْحَدَراتِ ذَلِكَ المُسْتَنْقَعِ .

الفَصْلُ الخامِسَ عَشَرَ

كانَتْ لَيْلَةً رَطْبَةً كَئيبَةً عِنْدَما آذَنَ شَهْرُ نوفَمْبر بِالرَّحيلِ ، وَقَدْ جلسْتُ أنا وهولمز على جانبيْ مدْفأةٍ مُتأجِّجةٍ ، في غُرْفة جُلوسِنا في شارِعِ بيكر .

قالَ هولمز : « لَقَدْ عَقَدْتُ جَلْسَتَيْ حِوارٍ مَعَ السَّيِّدَةِ ستيبلتن. وقدْ أوْشكتِ القضيَّةُ الآنَ أنْ تنْجلِيَ كُلُّ خفاياها . إنَّ صورة العائلَةِ لا تكْذِبُ ، لقدْ كانَ ستيبلتن في الحقيقة واحدًا منْ آل باسكرفيل ، وكانَ أحد أبناء رُوجر باسكرفيل الأخِ الأصْغرِ لسير تشارلز ، وكان قدْ هربَ ، بسُمْعةٍ شائنة ، إلى أمْريكا الوُسْطى ولعلَّكَ تعْتَقِدُ أنَّهُ ماتَ عزبًا ، غيْرَ أنَّهُ تزوَّج فِعْلاً ، وتزوَّج أنَّهُ بإحْدى الوطنيّات الفاتنات ، واسْمُها بيريل غارسيا وقدْ سرق قدْرًا كبيرًا من المالِ العامِّ ، وبعْد ذلك بأنْ بدّل اسْمَهُ إلى فاندلير، وعاد بذلك الاسْم إلى إنْجلترا ، حيْثُ افْتتح مدْرسة

خاصَّةً في يوركشاير ، بَيْدَ أنَّهُ ، لِسُوءِ سُمْعَةِ المَدْرَسَةِ ، اضْطُرَّ إلى إغْلاقِ أبْوابِها ومَرَّةً أخرى بَدَّلَ اسْمَ ڤانديلير هُوَ وزَوْجَتُهُ إلى ستيبلتن ، حَيْثُ ادَّعَيا أنَّهُما شَقيقٌ وَشَقيقَتُهُ ، مَعَ أنَّهُما كانا في الحَقيقَةِ زَوْجًا وَقَرينَتَهُ . وَنَزَحَ ستيبلتن بِبَقايا ثَرْوَتِهِ مَعَ خِبْرَتِهِ في عَمَلِهِ كَعالِمِ طَبيعَةٍ ، إلى جَنوبِ إنْجِلْترا .

« وَكانَ أوَّلَ إجْراءٍ اتَّخَذَهُ هُوَ الاسْتِقْرارُ بِجانِبِ مَنْزِلِ العائِلَةِ ، ثُمَّ أعْقَبَ ذَلِكَ بِعَقْدِ صَداقَةٍ مَعَ سير تشارلز باسكرڤيل . وَكانَ ستيبلتن قَدْ عَرَفَ مِنَ الدُّكْتور مورتيمر أنَّ قَلْبَ الرَّجُلِ الشَّيْخِ ضَعيفٌ ، وَأنَّ أيَّةَ صَدْمَةٍ مِنَ المُمْكِنِ أنْ تَقْضِيَ عَلَيْهِ . وَعَرَفَ مِنْ قَبْلُ كَذَلِكَ أنَّ سير تشارلز قَدْ حَمَلَ حِكايَةَ الكَلْبِ مَحْمَلَ الجِدِّ ، وَبِذَلِكَ فَكَّرَ في طَريقَةٍ يَقْتُلُهُ بِها دونَ ظُهورِ أيَّةِ شُبْهَةٍ جِنائِيَّةٍ في أنَّهُ ماتَ مَقْتولاً ؛ فَابْتاعَ أقْوى الكِلابِ وَأشَدَّها شَراسَةً في لَنْدَن وَإبّانَ تَنَقُّلاتِهِ لِصَيْدِ الحَشَراتِ تَعَلَّمَ كَيْفَ يَعْبُرُ المُسْتَنْقَعَ بِسَلامٍ . وَعِنْدَئِذٍ أوْجَدَ مَخْبَأً أمِنًا لِذَلِكَ المَخْلوقِ ، وَراحَ يَتَرَقَّبُ ، بَيْدَ أنَّ الشَّيْخَ لَمْ يَكُنْ يُغْرِيهِ شَيْءٌ لِتَرْكِ أرْضِهِ أثْناءَ اللَّيْلِ .

« وَكانَ ستيبلتن يَأمُلُ في أنْ تُعينَهُ زَوْجَتُهُ فيما انْتَوى فِعْلَهُ ،

بَيْدَ أنَّها أبَتْ عَلَيْهِ ذَلِكَ ، فَلا الوَعيدُ وَلا الكَلِماتُ المَعْسولَةُ اسْتَطاعا حَمْلَها عَلى ذَلِكَ .

« وَبَعْدَ ذَلِكَ طَلَبَ سير تشارلز إلَيْهِ أنْ يَتَعاوَنَ مَعَهُ عَلى مَدِّ يَدِ العَوْنِ لِلسَّيِّدَةِ البائِسَةِ لورا ليونز ، وَ لِلتَّوِّ وافَقَ ستيبلتن الَّذي تَظاهَرَ بِعَدَمِ الزَّواجِ ، وَعِنْدَئِذٍ اسْتَطاعَ أنْ يَفْرِضَ تَأثيرَهُ عَلَيْها ، وَ وَعَدَها بِالزَّواجِ عِنْدَما يَتِمُّ لَها الطَّلاقُ مِنْ زَوْجِها .

« وَفَجْأةً ، عِنْدَما نَمى إلى عِلْمِهِ أنَّ سير تشارلز كانَ مُقْبِلاً عَلى مُغادَرَةِ القَصْرِ . بَدا لَهُ أنْ يَبْدَأ مُخَطَّطَهُ في الحالِ ، وَعِنْدَئِذٍ أقْنَعَ السَّيِّدَةَ ليونز بِتَحْريرِ خِطابٍ تَحُثُّ فيهِ الرَّجُلَ عَلى مُقابَلَتِها قَبْلَ رَحيلِهِ إلى لَنْدَن ، ثُمَّ أقْنَعَها بِألا تَذْهَبَ ، وَبِذَلِكَ سَنَحَتْ لَهُ الفُرْصَةُ .

« وَجاءَ بِكَلْبِهِ وَطَلاهُ بِمادَّةِ الفوسْفور ، ثُمَّ أطْلَقَهُ عَلى ذَلِكَ الشَّيْخِ التَّعِسِ ، الَّذي كانَ يَنْتَظِرُ السَّيِّدَةَ ليونز عِنْدَ البَوّابَةِ . وَعَلى مَمَرِّ أشْجارِ السَّرْوِ المُظْلِمِ ، لا بُدَّ أنْ يَكونَ ذَلِكَ المَخْلوقُ الأسْوَدُ الضَّخْمُ ، ذو الفَكِّ المُشْتَعِلِ نارًا وَالعَيْنَيْنِ المُلْتَهِبَتَيْنِ مَنْظَرًا تَقْشَعِرُّ لَهُ الأبْدانُ . وَراحَ سير تشارلز يَعْدو كَالمَسْعورِ ، وَما لَبِثَ أنْ سَقَطَ صَريعًا بِالقُرْبِ مِنْ نِهايَةِ ذَلِكَ المَمَرِّ ، مِنْ فَرْطِ ما

نالَهُ مِنَ الفَزَعِ مَعَ اعْتِلالِ قَلْبِه . ثُمَّ اقْتِيدَ الكَلْبُ وَأُخْفِيَ في المُسْتَنْقَعِ ، وَصارَ مِنَ المُحالِ إقامَةُ دَعْوى عَلى القاتِلِ الحَقيقِيِّ ، وَعَوْنِه الوَحيدِ . وَكانَتِ المَرْأَتانِ تَرْتابانِ في ستيبلتن ، لكِنَّهُما كِلْتَيْهِما كانَتا واقِعَتَيْنِ تَحْتَ تَأْثيرِه ؛ وَبِذلِكَ كانَتْ خَشْيَتُهُ مِنْهُما شِبْهَ مَعْدومَةٍ . وَأَخْبَرَهُ الدُّكْتور مورتيمر – فيما بَعْدُ – بِكُلِّ التَّفاصيلِ عَنْ وُصولِ سير هنري ، وَكانَ أَوَّلَ ما تَبادَرَ إلى ذِهْنِ ستيبلتن أَنْ يَقْتُلَهُ في لَنْدَن ، وَلَمْ يَكُنْ لِيَثِقَ بِزَوْجَتِهِ البَعيدَةِ عَنْ ناظِرَيْهِ ، بَعْدَ أَنْ أَبَتْ أَنْ تُعاوِنَهُ في إيقاعِ الشَّيْخِ في حَبائِلِهِ ، وَمِنْ ثَمَّ اصْطَحَبَها إلى لَنْدَن ، وَأَغْلَقَ عَلَيْها البابَ في غُرْفَتِها بِالفُنْدُقِ ، ثُمَّ الْتَحى بِلِحْيَةٍ زائِفَةٍ ، ثُمَّ تَبِعَ الدُّكْتور مورتيمر إلى شارِعِ بيكر ، وَمِنْها إلى مَحَطَّةِ ووترلو ، ثُمَّ إلى فُنْدُقِ نورثامبرلاند . وَلَمْ تَجْسُرْ زَوْجَتُهُ عَلى أَنْ تُحَذِّرَ الرَّجُلَ ، الَّذي ظَنَّتْ أَنَّهُ كانَ في خَطَرٍ . عَلى أَنَّها ، آخِرَ الأَمْرِ ، اقْتَطَعَتْ بِضْعَ كَلِماتٍ لِتَكْوينِ رِسالَةٍ ، أَرْسَلَتْها إلى سير هنري .

« وَقَدْ تَعَيَّنَ عَلى ستيبلتن أَنْ يَكونَ في حَوْزَتِهِ شَيْءٌ يَضَعُ بِهِ الكَلْبَ عَلى طَريقِ سير هنري ، وَلَمّا كانَتْ فَرْدَةُ الحِذاءِ الأولى لَمْ تُلْبَسْ ؛ وَبِذلِكَ تُصْبِحُ عَديمَةَ الجَدْوى ، فَقَدْ أَعادَها إلى مَكانِها وَسَرَقَ أُخْرى . هذِهِ اللَّهْفَةُ لِسَرِقَةِ فَرْدَةِ حِذاءٍ قَديمَةٍ قَدْ

بَيَّنَتْ لي أَنَّنا كُنّا نَتَعامَلُ مَعَ كَلْبٍ حَقيقِيٍّ ، يُعْطى أَيَّ شَيْءٍ قَدْ لُبِسَ مِنْ قَبْلُ ؛ فَيَقْتَفي أَثَرَ صاحِبِها . وَقَدْ يَبْدو أَكْثَرُ الأَحْداثِ تَفاهَةً هُوَ أَقْرَبَ شَيْءٍ يُؤْخَذُ في الاعْتِبارِ ، يا واطْسُن ! وَالنُّقْطَةُ الَّتي تَظُنُّها مُعَقِّدَةً لِلْقَضِيَّةِ ، إذا دُرِسَتْ بِعِنايَةٍ ، تُلْقي بِظِلالِها عَلى تِلْكَ القَضِيَّةِ .

« وَبَعْدَ ذلِكَ تَمَّتِ الزِّيارَةُ عِنْدَنا مِنْ أَصْدِقائِنا صَباحَ اليَوْمِ التّالي ، وَتَبِعَهُمْ ستيبلتن في عَرَبَتِهِمْ . وَلَمّا أَدْرَكَ أَنَّني قَدْ أَخَذْتُ عَلى عاتِقي تِلْكَ القَضِيَّةَ في لَنْدَن ، وَجَدَ أَنَّهُ قَدْ زايَلَتْهُ الفُرْصَةُ ، فَعادَ إلى دارتمور .

« وَعِنْدَما كُنْتُ أَفْحَصُ الوَرَقَةَ الَّتي أُلْصِقَتْ عَلَيْها الكَلِماتُ المَطْبوعَةُ ، رَفَعْتُها بِضْعَةَ سَنْتيمِتْراتٍ قُرْبَ عَيْنَيَّ ؛ عِنْدَ ذاكَ شَمَمْتُ رائِحَةَ عِطْرٍ نِسائِيٍّ ، وَمَعْنى هذا أَنَّهُ كانَتْ ثَمَّةَ امْرَأَةٌ ؛ فَبَدَأَتْ أَفْكاري تَتَحَوَّلُ إلى أُسْرَةِ ستيبلتن ، وَبِذلِكَ ازْدادَ يَقيني بِوُجودِ الكَلْبِ ، وَشَرَعْتُ أُخَمِّنُ مَكانَ المُجْرِمِ وَمَكانَهُ ، حَتّى قَبْلَ أَنْ نَتَّخِذَ سَبيلَنا إلى دارتمور .

« لَمْ يَكُنْ ثَمَّ بُدٌّ مِنْ أَنْ أَضَعَ ستيبلتن تَحْتَ مُراقَبَتي ، ذلِكَ لأَنَّهُ عِنْدَئِذٍ سَوْفَ يَكونُ حَذِرًا . وَكانَ لِزامًا عَلَيَّ أَنْ أَخْدَعَ

الجميعَ وأَنت مِنْ بينِهِمْ ، وَمِنْ ثَمَّ فَقَدْ مَكَثْتُ هُنا في السِّرِّ حَيْثُ كانَ مَفروضاً أنّني في لَنْدَن ، وَلَبِثْتُ في كومب تريسي ، وَلَمْ أَسْتَخْدِمِ الكوخَ إلا عِنْدَ الضَّرورَةِ . وَما لَبِثَتْ تَقاريرُكَ أَنْ بَلَغَتْني ؛ أَرْسِلَتْ إِلَيَّ مِنْ شارعِ بيكر إلى كومب تريسي ، وَكانَتْ خَيْرَ عَوْنٍ لي وَبِخاصَّةٍ النُّتْفَةُ الخاصَّةُ بِحَياةِ عائِلَةِ ستيپلتن السّابِقَةِ ؛ حَيْثُ عَرَفْتُ الآنَ مَنْ يَكونونَ . وَلَقَدْ زادَ المُهِمَّةَ تَعْقيداً السَّجينُ الهارِبُ وَعَلاقَتُهُ بِعائِلَةِ باريمور ، بَيْدَ أَنَّكَ أَنْتَ الَّذي كَشَفْتَ ذَلِكَ وَعَرَّيْتَهُ.

« وَإِذِ اكْتَشَفْتَني وَأَنا عَلى المُسْتَنْقَعِ ، كُنْتُ عَلى عِلْمٍ بِالمَسْأَلَةِ بِرُمَّتِها ، بَيْدَ أَنّني لَمْ أَرَ قُدّامي شَيْئاً يُمْكِنُ أَنْ يَكونَ قَضِيَّةً تُعْرَضُ أَمامَ المحاكِمِ . بَلْ إِنَّ مُحاوَلَةَ القَضاءِ عَلى حَياةِ سِير هنري تِلْكَ اللَّيْلَةَ – تِلْكَ المُحاوَلَةَ الَّتي راحَ ضَحِيَّتَها السَّجينُ المِسْكينُ الهارِبُ؛ لَمْ تُقَدِّمْ لَنا كَثيراً مِنَ العَوْنِ ، وَكانَ لِزاماً عَلَيْنا القَبْضُ عَلى ستيپلتن أَثْناءَ تِلْكَ المَعْمَعَةِ . وَقامَتِ السَّيِّدَةُ ستيپلتن بِالمُحاوَلَةِ تِلْوَ المُحاوَلَةِ ، لِتَحْذيرِ سِير هنري دونَ أَنْ تَفْقِدَ زَوْجَها . وَأَبْدى ستيپلتن أَماراتِ الغَيْرَةِ ، لَكِنَّهُ شَجَّعَ وُجودَ تِلْكَ العَلاقَةِ ؛ لِيَضْمَنَ مَجيءَ سِير هنري دَوْماً إلى ميرييت هاوس ؛ مُتَحَيِّناً الفُرْصَةَ الَّتي يَبْغيها إِنْ عاجِلاً أَوْ آجِلاً ، غَيْرَ أَنَّ

زَوْجَتَهُ قَدْ نَمى إِلَيْها شَيْءٌ عَنْ مَوْتِ ذَلِكَ السَّجينِ ، فَاتَّهَمَتْ زَوْجَها بِالتَّخْطيطِ لِجَريمَةٍ أُخْرى ، وَتَبِعَ ذَلِكَ شِجارٌ بَيْنَها وَبَيْنَ زَوْجِها . وَأَبانَ لأَوَّلِ مَرَّةٍ أَنَّها كانَتْ لَها مُنافِسَةٌ في حُبِّهِ ؛ وَسُرْعانَ ما انْقَلَبَ وَلاؤُها لِزَوْجِها إلى عَداوَةٍ مَريرَةٍ . وَتَبَيَّنَ لَهُ أَنَّها قَدْ تُسْلِمُهُ إلى مَنْ يُهِمُّهُ الأَمْرُ ؛ وَلِذَلِكَ أَحْكَمَ عَلَيْها الوِثاقَ لِلْحَيْلولَةِ بَيْنَها وَبَيْنَ تَحْذيرِها سِير هنري . وَلَيْسَ مِنْ شَكٍّ عِنْدَهُ في أَنَّهُ عِنْدَما يُجْمِعُ الجيرانُ عامَّتُهُمْ عَلى أَنَّ مَوْتَ سِير هنري كانَ نَتيجَةً لَعْنَةِ أُسْرَتِهِ ؛ فَسَوْفَ تَظَلُّ هِيَ عَلى سُكوتِها عَمّا تَعْرِفُ . لَكِنَّهُ قَدْ جانَبَهُ الصَّوابُ ؛ فَإِنَّ امْرَأَةً يَجْري في عُروقِها الدَّمُ الإِسْبانِيُّ لا يُمْكِنُ أَنْ تَعْفُوَ عَمَّنْ أَساءَ إِلَيْها بِمِثْلِ تِلْكَ البَساطَةِ .

« وَالآنَ ، أَنا أَعْتَقِدُ ، يا عَزيزي واطْسُن ، أَنَّنا مِنَ المُمْكِنِ – لِلَيْلَةٍ واحِدَةٍ – أَنْ نُوَجِّهَ نَظَرَنا إلى الأَشْياءِ الجَميلَةِ ؛ فَلَقَدْ حَجَزْتُ مَقْصورَةً في المَسْرَحِ . وَعَلَيْكَ أَنْ تَسْتَعِدَّ في غُضونِ نِصْفِ السّاعَةِ ، وَسَيَكونُ في مَقْدورِنا التَّوَقُّفُ عِنْدَ مَطْعَمِ مارسيني لِنَتَناوَلَ عَشاءً خَفيفاً ، وَنَحْنُ في طَريقِنا إلى المَسْرَحِ . »



مغامرات شرلوك هولمز

١- العصابة المرقطة وقصتان أخريان .
٢- النظارة الذهبية وقصتان أخريان .
٣- عصبة ذوي الشعر الأحمر وقصص أخرى .
٤- الماسة الزرقاء وقصص أخرى .
٥- شبح باسكرفيل .





